عباس محمود العقاد

الإنسان
في القرآن الكريم







عباس محمود العقاد

الإنسان

في القرآن الكريم

دار الإسلام
القاهرة



إنســان القــرآن
وإنسان القرن العشرين

تمهيد

انسان القرآن هو انسان القرن العشرين ، ولعل مكانه فى هذا القرن أوفق وأوثق من أمكنته فى كثير من القرون الماضية ، لأن القرون الماضية لم تلجىء الانسان الى البحث عن مكانه فى الوجود كله ، وعن مكانه بين الخلائق الحية على هذه الأرض ، وبين أبناء نوعه وأبناء الجماعة التى يعيش فيها من ذلك النوع ، وبين كل نسبة ظاهرة أو خفية ينتمى اليها ، كما ألجأه الى ذلك كله هذا القرن العشرون ٠

قديما كان الحكماء يجعلون شعارهم فى نصيحة الانسان ٠ « اعرف نفسك ! »

وانها لنصيحة قد ترادف سؤالهم : من أنت ؟ أو سؤالهم : ما اسمك ؟ غير أن الانسان اذا أجابه فانما يجيبه باسم « باطنى » يعرفه بملامح وجدانه وقسمات ضميره ، ولا يقف عند تعريفه بالاسم الذى يختار اعتسافا من بضعة حروف ٠٠

وهو على أية حال سؤال الى « شخص » بعد شخص ، قد يسمعه عشرون فى الحجرة الواحدة ويجيبون عليه عشرين جوابا متفرقات ٠٠

وقديما كانوا يزعمون أن أبا الهول كان يلقى سؤاله ، فيهلك من لم يعرف جوابه ٠ وكان سؤالا عن الحيوان الذى يمشى على أربع فى الصباح ، وعلى اثنتين عند الظهيرة ، وعلى ثلاث عند المساء ٠٠ فكان سؤالهم لغزا من ألغاز الأقدمين عن الانسان فى أطوار عمره ، بين الطفل الذى يحبو على أربع ، والفتى الذى يعتدل على قدمين ، والشيخ الذى يتحامل على عصاه ، وهو لغز شبيه بطفولة الانسان كله ٠٠ لا تبتعد المسافة بين جهله وعلمه ولا بين الهلاك فيه والنجاة ٠٠

٧

الا أن القرن العشرين جمع الأسئلة ، فلم يدع ســـؤالا عن نسبة من حسب الانسان لم يطلب جوابه ، على نذير بالهلاك لمن جهـــل الجواب ، وقد يكون هلاكا للجسد والروح ••

ما مكانه من هذه السيارة الأرضية بين خلائقها الأحياء ؟••

ما كانه من هذه السيارة الأرضية بين خلائقها الأحياء ؟••

ما مكانه بين أبناء نوعه البشرى ؟ وما مكانه بين كل جماعة من هـــذا النوع الواحد ، أو هـــذا النوع الذى يتألف من جملة أنواع يضمها عنـوان « الانسان » ••

وهى أسئلة لا جواب لها فى غير « عقيدة دينية » تجمع للانسان صفوة عرفانه بدنياه وصفوة ايمانه بغيبها المجهول •• تجمع له زبدة الثقة بعقله ، وزبدة الثقة بالحياة •• حياته وحياة سائر الأحياء والأكوان ••

ان القرن العشرين كان حقيقـــا أن يسمى بعصر « الايديولوجيـــة » أو عصر الحياة « على مبدأ وعقيـــدة » ، لأنه كلما ألقى على الانسان ســؤالا من أسئلته تلك لم يعفه من جوابه ، ولم يسلمه الى جزاء أهـون من جزاء الحيرة عند السكوت عليه •• فان يكن سكوتا عن الأجوبة جميعا فهو الهلاك المحدق بالأبدان والعقول

وليس أكثر من « المبادىء والعقائد » التى نسمع عنها فى هذا القرن ، ويسمونها بالمذاهب و « الايديولوجيات »

ولكن أجوبة القرن العشرين ، مهما يكن من شأنها ، فهى أجوبة العصر الذى يحل المشكلة الزمنية ولا يتعداها الى مشـــكلة الأبد : مشكلة ما مضى وما أتى من الدهر وما يأتى الى غير نهاية ، ولا جواب لهذه المشكلة غير العقيدة الدينية التى تؤمن بها الانسانية ، فلا يغنى فيها ايمان فرد واحد بينه وبين ضميره ، أو جواب سؤال واحد لمن يقول : من أنت ؟ وماذا تعرف من نفسك بين عامة النفوس ؟ قصـــاراك انك واحد منهـــا بين ألوف الألوف ، عاشوا ويعيشون وسيعيشون ، ولا يسكتون عن تلك الأسئلة عامة ، ولا أمان لهم ولا لك ان سكتوا عليها •

هذه العقيدة الدينية توجد كما ينبغي أن توجد ، وانما الضلالة فيمن يريدها على غير سوائها الذى تستقيم عليه ، ولا تستقيم على سواه

هذه العقيدة الدينية لا توجد اليوم لتنبذ غـــدا ، ولا توجـد على الأيام للعارفين دون الجاهلين ، وللعاملين دون الخاملين ، ولمن يطلبون الخير للنـاس دون من يطلبون الخير لأنفسهم ، ولمن يعتقدون دراية ومحبة دون من يعتقدون تسليما ورهبة ، ولمن يسعون سعيهم الى العلم والايمان دون من يقعدون فى مواطنهم منتظرين ، وقد يقعـــدون وهم يجهلون انهم قاعدون ، لا يعلمـون ما الخبر وما المنتظر ؟ ان علموا أنهم منتظرون ! ..

هذه العقيدة بنية حية ، قوامها دهور وأمم ، ومعايش وآمال ، ونفوس خلقت ونفوس لم تخلق ، ونفوس يخلق لهـــا تراثها قبل أن يصير اليهـا ، وسبيلها جميعا أن تتهدى الى قبلة واحـــدة : تنظر اليهـا فتمضى قدما ، أو تفقدها فى الأفق فهى أشلاء ممزقة ، كأنها أشلاء الجسم المشدود بين مفارق الطريق ..

* * *

ان القرن العشرين ، منذ مطلعه ، يعرض العقيـــدة بعد العقيـــدة على الانسان وعلى الانسانية ، ولا نعلم انه عرض عليها حتى اليوم قديما معادا أو جديدا مبتدعا هو أوفق من عقيـــدة القرآن ، وأوفق ما فيها أنهـا غنية عن الاختراع والامتحان ، وأنها على شرط العقيدة الدينية من بنية حية ، شملت ملايين الخلق وثبتت معهم وحدها فى كل معترك زبون ، يوم خذلتهم كل قوة يعتصم بها الناس

* * *

ونحن ندعى فى هذه الصفحات أن المنصف بين النصائح لا يستطيع أن ينصح لأهل القرآن بعقيدة فى الانسان والانسانية أصح وأصلح من عقيدتهم التى يستوحونها من كتابهم ، وأن القرن العشرين سينتهى بما استحدث من مبادىء ومذاهب و « ايديولوجيات » ولا ينتهى ما تعلمـــه أهـل القرآن من القرآن ..

وان أهل هذا الكتاب يتدبرون القول ، فيتبعون أحسنه اذا تدبروا فلم يأخذوا بعقيدة من هـــذه العقائد التى يروجها دعاتها باسم المـــادية ، أو الفاشية ، أو العقلية ، ويريدون بهـــا أن تكون على الزمن بديلا من العقـائد الالهية ، ومن عقائد الغيب الذى يحسبونه معدوما أو موجودا كمعدوم

وقد استمع الناس الى المادية التاريخية ، فقالت لهم ان الانسان عملة « اقتصادية » فى سوق الصناعة والتجارة ، تعلو وتهبط فى طبقاتها بمعيار العرض والطلب وصفقات الرواج والكساد · أما الانسانية فقـد أنصتت الى المادية التاريخية ، فقالت لها انها شىء لا وجود له مع طوائفها التى تخلقهـــا الاسعار والأجور ··

واستمع الناس الى الفاشية فقـالت لهم ان الانسان واحـــد من عنصر سيد أو عنصر مسود ، وان أبناء الانسانية جميعـــا عبيد للعنصر السيد ، والعنصر السيد قبل ذلك عبد للسيد المختار ، بغير اختيار ·

واستمع الناس الى « العقلية » فقـال لهم قائل منها ان « انسانيتهم » كذلك شىء لا وجود له ووهم من أوهام الاذهان ، وان الشىء الموجود حقا هو الفرد الواحد ! ·· وبرهان وجوده حقا أن يفعل ما استطاع من نفع أو أذى ، كلما أمن المغبة من سائر الأفراد والأحداث ·· !

وغير جديد ما استمعوه من أهل العقائد الالهية عن مكان هذا الانســان من الأرض والسماء ، ومكانه من اخوته فى آدم وحواء

سمعوا انه روح وجسد ، ودنيا وآخرة ، ينجو شطره بمقدار ما يهلك شطره ، ويصح له الوجود بمقدار ما صح له من عقبى الفناء ··

وسمعوا انه انسانان ·· انســـان صحيح مقبول ، وانســـان زائف مدخول ·· صحيح مقبول كل من اجتباه مولاه على هواه ، وزائف مدخول كل من خلقه ونفاه ، ولعله لم يخلقه ودعاه اليه من دعاه

وسمعوا أن الانسان يولد بذنب غيره ، ويموت بذنب غيره ، ويبرأ من الذنب بكفارة غيره ، ويمضى بين النعمة واللعنة بقـدر من الأقدار ، لا نصيب له فيه من عصيان أو طاعة ، ومن اباء أو اختيار

وسمعوا من القرآن غير ذلك ، فهم متدبرون يستمعون الى العقل كما يستمعون الى الايمان اذا اطمأنوا وثبتوا على اطمئنانهم اليه ..

الانسان فى عقيدة القرآن هو الخليقة المسئول بين جميع ما خلق الله .. يدين بعقله فيما رأى وسمع ، ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب ، فلا تدركه الأبصار والأسماع

و « الانسانية » من أسلافها الى أعقابها أسرة واحدة لها نسب واحد واله واحد ، أفضلها من عمل حسنا واتقى سيئا ، وصدق النية فيما أحسنه واتقاه ..

* * *

وفى الصفحات التالية كتابان فى كتاب وجيز .. نبدأهما بعقيدة القرآن فنعيد هذه الكلمات القلائل فى صفحات ، ونتلوها بعرض مفيد لتاريخ البحث عن نشأة الانسان فى مذاهب الفكر والعلم أو مذاهب الحدس والخيال ، ولا نزيد فى سردها على الالمام بما يصلح أن يكون محكا للنظر فيما يؤخذ بالبرهان أو يؤخذ بالايمان عن حقيقة الانسان ..

الكتاب الأول

الإنسان في القرآن



المخلوق المسئول

ارتفع القرآن بالدين من عقائد الكهانة والوساطة وألغاز المحاريب الى عقائد الرشد والهداية ·· لا جرم كان « المخلوق المسئول » صفوة جميع الصفات التى ذكرها القرآن عن الانسان ، اما خاصة بالتكليف أو عامة فى معارض الحمد والذم من طباعه وفعاله ··

ولقد ذكر الانسان فى القرآن بغاية الحمد وغاية الذم فى الآيات المتعددة وفى الآية الواحدة · فلا يعنى ذلك إنه يحمد ويذم فى آن واحد ، وانما معناه انه أهل للكمال والنقص بما فطر عليه من استعداد لكل منهما ، فهو أهل للخير والشر ، لأنه أهل للتكليف

والانسان مسئول عن عمله ـ فردا وجماعة ـ لا يؤخذ واحد بوزر واحد ، ولا أمة بوزر أمة :

* * *

« كل امرىء بما كسب رهين »

« سورة الطور »

* * *

« تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون »

« سورة البقرة »

* * *

أما مناط المسئولية فى القرآن ، فهو جامع لكل ركن من أركانها يتغلغل اليه فقه الباحثين عن حكمة التشريع الدينى أو التشريع فى الموضوع ··

فهى بنصوص الكتاب قائمة على أركانها المجملة : تبليغ ، وعلم ، وعمل ··

فلا تحق التبعة على أحد لم تبلغه الدعوة فى مسائل الغيب ومسائل الايمان :

« ولكل أمة رسول ، فاذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون »

« سورة يونس »

* * *

« وان من امة الا خلا فيها نذير »

« سورة فاطر »

* * *

« وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »

« سورة الاسراء »

* * *

أما العلم فان أول آية فى الكتاب تلقاها صاحب الدعوة الاسلامية ، كانت أمرا بالقراءة وتنويها بعلم الله وعلم الانسان :

* * *

« اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم »

« سورة العلق »

* * *

وأول فاتحة فى خلق الانسان ، كانت فاتحة العلم الذى تعلمه آدم وامتاز به على سائر المخلوقات :

* * *

« وعلم آدم الأسماء كلهـا ، ثم عرضهم على الملائكة فقـال : انبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين • قالوا : سبحانك ، لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم »

« سورة البقرة »

* * *

وأما العمل فهو مشروط في القرآن بالتكليف الذى تسعه طاقة المكلف ، وبالسعى الذى يسعاه لربه ولنفسه :

* * *

« لا يكلف الله نفسا الا وسعها »

« سورة البقرة »

« وأن ليس للانسان الا ما سعى »

« سورة النجم »

« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره »

سورة الزلزلة »

* * *

ورسل البلاغ هم أول المكلفين بالعلم والعمل ، أممهم جميعا أمة واحدة هى « الأمة الانسانية » والههم جميعا اله واحد هو رب العالمين :

* * *

« يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم • وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون »

« سورة المؤمنون »

* * *

وفيما ذكر فيه الانسان من آيات الكتاب وصف له ، وهو فى الذروة من الكمال المقدور له بما استعد له من التكليف ، ووصف له وهو فى الدرك الأسفل من الحطة التى ينحدر اليها بهذا الاستعداد ، وكل هذه الآيات توسع مفصل فيما ورد من نصوص الأمر والنهى ، والعظة والتذكير ، والثواب والعقاب ..

فالانسان أكرم الخلائق بهذا الاستعداد المتفرد بين خلائق السماء والأرض ، من ذى حياة أو غير ذى حياة :

* * *

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »

« سورة الاسراء »

* * *

« لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم »

« سورة التين »

« سخر لكم ما فى السموات »

« سورة لقمان »

« سخر لكم ما فى الأرض »

« سورة الحج »

* * *

ولكنه ينفرد بين الخلائق بمساوىء لا يوصف بها غيره ، لأن السيئة والحسنة ــ على السواء ــ لا يوصف بها مخلوق غير مسئول ..

فهذا المخلوق المسئول يوصف دون غيره من الخلائق بالكفر والظلم والطغيان والخسران والفجور والكنود ، لأنه دون غيره أهل للايمان والعدل والرجحان والعفاف

« ان الانسان لظلوم كفار »

« سورة ابراهيم »

* * *

« ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى »

« سورة العلق »

* * *

« ان الانسان لفى خسر »

« سورة العصر »

* * *

« بل يريد الانسان ليفجر أمامه »

« سورة القيامة »

* * *

« ان الانسان لربه لكنود »

« سورة العاديات »

* * *

وقد يذكر بالضدين فى الآية الواحدة كما جاء فى قوله تعالى :

« لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم • ثم رددناه أسفل سافلين »

* * *

ونقرأ فى بعض التفاسير أن أسفل سافلين هو أرذل العمر ، وهو يقتضى أن يكون « أحسن تقويم » هو تقويم الطفل الوليد

ونقرأ فى غيرها أن أسفل سافلين هى الجحيم ، فيكون لزاما أن الجنة هى المقصودة بأحسن تقويم

وفهم الكثيرون أن التقويم الحسن هو الصورة الظاهرة لاعتدال قوام الانسان ، وليس جمال الخلق وحده مرتبطا باعتدال القوام ، بل ترتبط به القدرة على العمل والارادة ، وهى قدرة لم تخف علاقتها بصورته الظاهرة قبل عصر التشريح والعلم بوظائف الاعضاء الذى أبان العلاقة الضرورية بين اعتدال القامة وجهاز النطق فى الرأس والعنق وعمود الظهر وسائر البدن ، ثم زاد الناس علما بما يعنيه التقويم الحسن من فضائل العقل والجسد ومن مزايا الفطنة والجمال

وانما المعنى الموافق لسائر معانى الآيات ، ان الجمع بين النقيضين فى الانسان ينصرف الى وصف واحد ، وهو وصف الاستعداد الذى يجعله أهلا للترقى الى أحسن تقويم وأهلا للتدهور الى أسفل سافلين

على ان الآيات التى قصر فيها القول على خلق جسد الانسان ، لم تخل مما يوحى الى المخلوق المسئول ان أطوار خلقه السوى اعداد لما هو أشرف من حيانه الحيوانية ، وبرهان من براهين التبليغ برسالة الغيب ، عسى أن ينظر فى الخلق فيرى فيه آثار الخالق الذى لا تدركه الأبصار والأسماع :

* * *

« ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين »

« سورة المؤمنون »

* * *

« ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم • الذى أحسن كل شئ خلقه ، وبدأ خلق الانسان من طين • ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين • ثم سواه ونفخ فيه من روحه »

« سورة السجدة »

* * *

« ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون »

« سورة الروم »

* * *

« سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون »

« سورة يس »

* * *

ولا يسأل الانسان عما يجهل ، ولكنه يسأل عما علم وعمـا وسعه أن يعلم ، وما من شيء فى عالم الغيب أو عالم الشهادة هو محجوب كله عن علم الانسان ، فما وسعه من علم فهو محاسب عليه

الكائن المكلف

القرآن كتاب تبليغ واقناع وتبيين ، وقوام هذه الفضيلة فيه هذا التوافق التام بين أركانه وأحكامه ، وبين عقائده وعباداته ، وبين حجته ومقصده ، فكل ركن من أركانه يتنزل فيه بأقداره ، ويوافق في تفصيله سائر أركانه التي تتم به أو يتم بها على قدر مبين

ليس أتم ولا أعجب من التوافق بين تمييز الانسان بالتكليف ، وبين خطاب العقل في هذا الكتاب المبين ، بكل وصف من أوصاف العقل ، وكل وظيفة من وظائفه في الحياة الانسانية

وخليق بالمسلم ، وبكل دارس للأديان ، أن يتنبه الى هذه الفضيلة التي تحسب لأول وهلة كأنها شيء من الواقع البديهي لا يحتاج الى التنبيه ، ولكن حاجته الى التنبيه انما تظهر عند المقارنة بين القرآن وبين جملة من الكتب الدينية الكبرى ، في فضيلة التبليغ المقصود ، ونعني به التبليغ الذي يراد ويتناسب فيه البيان على حسب الأحكام والأركان

في كثير من الأديان أركان تقوم عليها دعائم الدين كله ويرتبط بها نجاة الانسان من الهلاك أو ضياعه في هاوية المقت واللعنة ، ثم تبحث عن هذه الأركان في كتاب الدين فاذا هي معروضة فيه بين السطور ، يحيلها المفسرون الى حكم القرينة ، ويجوز لمن شاء أن يحسبها من مصادفات القول يتساوى السكوت عنها والنص عليها ..

مثل هذا لا يعرف في حكم من أحكام الكتاب المبين ولا في ركن من أركانه ، بل المعروف فيه على نقيض ذلك أن تبليغه على قدر فريضته وأن التوافق فيه على أتمه بين الأركان التي تتلازم وتتكامل ، عن بيان مقدور لا محل فيه لفرض المصادفة ، بل لا محل فيه لتجاهل القصد مع رسالة من رسالات التبليغ ..

مكان الانسان فى القرآن الكريم هو أشرف مكان له فى ميزان العقيدة وفى ميزان الفكر وفى ميزان الخليقة الذى توزن به طبائع الكائن بين عامة الكائنات ..

هو الكائن المكلف ..

هو كائن أصوب فى التعريف من قول القائلين « الكائن الناطق » وأشرف فى التقدير ..

هو كائن أصوب فى التعريف من الملك الهابط ومن الحيوان الصاعد ، وأشرف فى التقدير من هذا وذاك

ليس الكائن الناطق بشىء ، ان لم يكن هذا النطق أهلا لأمانة التكليف .

وليس الملك الهابط منزلة تهدى الى طريق الصعود أو طريق الهبوط .. وليس الحيوان الصاعد بمنزلة الفصل بين ما كان عليه وما صار اليه .. ولا بمنزلة التمييز بين حال وحال فى طريق الارتقاء

انما الكائن المكلف شىء محدود بين الخلائق بكل حد من حدود العقيدة أو العلم أو الحكمة ، وحادث من حوادث الفتح فى الخليقة موضوع فى موضعه المكين بالقياس الى كل ما عداه ..

أى شىء أعجب من هذه الخاصة المحكمة ينفرد بها القرآن بين تعريفات الفلسفة وتعريفات الدعوة الدينية ..

انها عجيبة لا يدفع عجبها الا أنها تجرى على سنتها من تبليغ الكتاب المبين ..

انها عجيبة لم تأت من مصادفات التضمين والتخمين ، لأن الكتاب الذى ميز الانسان بخاصة التكليف ، هو الكتاب الذى امتلأ بخطاب « العقل » بكل ملكة من ملكاته ، وكل وظيفة عرفها له العقلاء والمتعقلون ، قبل أن يصبح العقل « درسا » يتقصاه الدارسون كنها وعملا ، وأثرا فى داخله وفيما خرج عنه ، وفيما يصدر منه وما يئول اليه ..

العقل وازع « يعقل » صاحبه عما يأباه له التكليف ..

العقل فهم وفكر يتقلب فى وجوه الأشياء وفى بواطن الأمور ..

العقل رشد يميز بين الهداية والضلال ..

العقل روية وتدبير ..

العقل بصيرة تنفذ وراء الأبصار ..

والعقل ذكرى تأخذ من الماضي للحاضر ، وتجمع العبرة مما كان لما يكون ، وتحفظ وتعى وتبدىء وتعيد ..

والعقل بكل هذه المعانى موصول بكل حجة من حجج التكليف ، وكل أمر بمعروف ، وكل نهى عن محظور ..

أفلاً يعقلون ؟ أفلا يتفكرون ؟ أفلا يبصرون ؟ أفلا يتدبرون ؟ أليس منكم رجل رشيد ؟ أفلا تتذكرون ؟

ان هذا العقل بكل عمل من أعماله التى يناط بها التكليف حجة على المكلفين فيما يعنيهم من أمر الأرض والسماء ، ومن أمر أنفسهم ، ومن أمر خالقهم ، وخالق الأرض والسماء ، لأنهم :

* * *

« **ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا** »

« سورة آل عمران »

* * *

« **أولم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى** »

« سورة الروم »

* * *

وقد ننقل تكاليف القرآن جميعا ، وننقل عظاته جميعا اذا أردنا الشواهد على هذا التوافق الموصول بين تمييز الانسان بالتكليف فى القرآن وبين خطابه للعقل والفكر ، ونذكيره بالرشد والبصر وسائر ملكات التمييز فى مصطلحات الاوائل والأواخر ، ولكنها شواهد حاضرة فى ذهن كل قارىء لهذا الكتاب ، وكل قادر على المقابلة بينه وبين غيره من كتب الاديان ، ولو لم يعبر منها غير صفحات معدودات .

ومن تمام التوافق بين أركان التبليغ فى هــذا الكتاب ان الأمر فيه يجرى على هذه السنة ، فيما أتى به فريدا غير مسبوق عن رسالة النبوة ..

انها الرسالة التى لم تعرف قط فى التاريخ البشرى قبل تمييز الانسان بخاصة التكليف واعداده لخطاب العقل وبينات الاقناع ..

كانت الأمم – قبل البعثة المحمدية – تفهم أن النبوة استطلاع للغيب وكشف للأسرار والمخبآت ، يستعان بهـا على رد الضائع واعادة المسروق أو الدلالة عليـه ، ويستخبرونها عن طوالع الخير والشر ومقادير السعود والنحوس ، وكان من تلك الأمم من يحسب أن النبوة وساطة بين المعبود وعباده للتشفع اليه بالهدايا والقرابين ، وكانوا يطلبون وساطة الأنبياء دفعا للنوازل التى يستحقونها وتنزل بهم ، لأنها قضاء مبرم يتوقعه الصالحون العارفون ، ويسألون المعبود فى دفعه قبل نزوله .. فجاءت نبوءة الاسلام بجديد باق لم تسبق له سابقة فى الدعوات الدينية ، بل لا حاجة بعده الى جديد ولا استطاعة للتجديد ، لأنه يخاطب فى الانسان صفته الباقية وخاصته الملازمة ، وهى خاصة النفس الناطقة بين عامة الأحياء أو خاصة الضمير المسئول الذى يحمل تبعته ولا تغنيه عنها شفاعة ولا كفارة من سواه ..

فهى نبوة فهم وهداية ، وليست نبوة استطلاع وتنجيم .. وهى نبوة هداية بالتأمل والنظر والتفكير ، وليست نبوة خوارق وأهوال تروع البصر والبصيرة وتروع الضمائر بالتخويف والارهاب حيث يعييها قبول الاقناع ..

انها نبوة مبشرة منذرة لا تملك لهم نفعا ولا ضرا ، ولا تعمل لهم عملا

غير ما يعملونه لأنفسهم بمشيئتهم اذا اهتدوا بهداية العقل المتدبر والضمير السليم :

* * *

« قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله . ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون »

« سورة الاعراف »

* * *

نعم .. ولا اغراء ولا مساومة على قربان أو على جزاء بين الأخذ والعطاء :

* * *

« قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم انى ملك . ان أتبـــع الا ما يوحى الى . قل هـــل يستوى الأعمى والبصير افلا تتفكرون »

« سورة الأنعام »

* * *

وقد جاءت سمعة المعجزة ميسرة لصاحب هذه النبوة ، يوم مات ابنـــه ابراهيم وكسفت الشمس ، فظن النـــاس أنهـــا كسفت لموته ، وأبى النبى الصادق أن يسكت عليها ، فتكلم ليعلمهم أن الشمس والقمر آيتان لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته

وقد بين للناس أن المعجزة لا تجدى من يكابر العقل ويأبى الاصغاء الى بينات الاقناع :

* * *

« ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون • لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون »

« سورة الحجر » -

* * *

ولقد تقدمت نبوة الاسلام دعوات كثيرة ، من أكبر الدعوات شأنا في تاريخ العقيدة ، ولكنك لو عرضتها على مؤرخ ينظر في أدوار التاريخ لم يستطع أن يختتم دور النبوة في تاريخ الانسانية بدعوة من تلك الدعوات على جلالة شأنها ، لأنها جميعا قد بدأت وانتهت قبل أن توجد في أذهان الناس فكرة الانسانية العامة وفكرة الانسان المسئول المحاسب على أمانة العقل والضمير ..

فنبوات بني اسرائيل لم تزل مقصورة على سلالة بشرية واحدة ، تنعزل بحاضرها ووعود مستقبلها عن سائر الأمم ، وعيسى عليه السلام قد نقل الرسالة نقلة واسعة حين أدخل أبناء ابراهيم بالروح في عداد أبنائه بالجسد ، ولكنه أدى رسالته وبقي الانسان بعده محتاجا أشد الحاجة الى رسالة تخلصه من الاعتماد على غيره في النجاة من أوزاره والتكفير عن سيئاته والنهوض بتبعات صلاحه وتربية روحه ، ولن تفرغ أمانة النبوة في تاريخ الانسانية قبل أن يوجد الانسان الذي يخاطب بخطاب العقل ويحاسب بحسابه ، ويحمل تبعاته على عاتقه ويشترك على سواء بينه وبين اخوانه من البشر في عبادة اله واحد ، هو رب العالمين ، وليس بالرب الذي يخلق نعمته لسلالة واحدة من خلقه ، أو لعشيرة واحدة يدركها الخلاص بفضل لم تفضله ، وحساب لم تضعه في موازينها بعمل يمينها ..

فلما جاءت نبوة التكليف ، صح في حكم العقل أن تختتم بها النبوة لأنها حاضرة في كل وقت يحضره الانسان العاقل المسئول ، وتحضره آيات الله لقوم يعقلون

* * *

« ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيـا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون »

« سورة البقرة »

* * *

ان قيام النبوة على اقناع العقـل المسئول بآيات الـكون ، قد اختتم سلطان الأحبار والقـادة كمـا اختتم سلطان النبوات بالمعجزات وخوارق العادات . فلا يعذر الاسلام انسانا يعطل عقله ليطيع السادة المستكبرين أو ليطيع الأحبار المتسلطين بسلطان المال والدين :

* * *

« قالوا فيم كنتم • قالوا كنـا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تـكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها »

« سورة النساء »

* * *

« قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهـدى بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين »

« سورة سبأ »

* * *

« يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الأحبـار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله »

« سورة التوبة »

* * *

« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله »

« سورة التوبة »

* * *

فلا يسقط التكليف عن العاقل أن يطيع المتحكمين بطغيان الحكم أو طغيان الكهانة ، ولا يمنعه التكليف أن يسأل من يعلم ان كان لا يعلم ، لأن طلب العلم يحقق واجب التكليف ولا يعطله أو يلغيه ، ويوجب على المتعلم أن يتبين من يسأل وهو مسئول عما يفعل :

* * *

« وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم ، فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون »

« سورة النحل »

* * *

فاذا سمى ختام النبوة باسمه الحق فى تاريخ الانسان ، فاسمه الحق انه هو فاتحة عهد الرشد فى حياة الانسانية الخالدة ، قبل عهد الرشد الذى أخرجته القرون الوسطى بسبعة قرون

ومن عبث الجهالة أن يفهم هذا الميقات الجليل فهم العقول الصغار ، فلا يعطى حقه من الفهم ولا حقه من التقديس ، وتسمع من يفسره فى « عصر العلم » فلا يفهم منه الا أنه « حكر » الاثرة يغلقه النبى على من بعده ، ويسيغ هذا السخف وهو صورة لا تقبل التصور عن هذا النبى ، كيفما تصوره الناظر اليه على حقيقته أو على دعواه .. فهذا « الحكر » صنيع لا يصنعه نبى أمر أتباعه بتصديق الأنبياء من قبله ، وجهد جهده لينفى سلطان الغيب عن نفسه ، ويطرد سمعة المعجزة عن دعوته ، وهى طيعة منقادة بين يديه .. فان جاز فى حقه هذا « الحكر » المغتصب ، فهل يجوز فى حقه أن يغتصبه من الله وأن يأمن تكذيب الله اياه ، وقدرته على اخلاف دعواه ؟

ان اختتام النبوة لا يفهم هذا الفهم الصغير فى عقل يطيق أن يدرك الواقع من أمر دعوة عظيمة ولا شأن عظيم . ولو كان احتكار النبوة باعث النبى الى دعواه لما دخل فيها ذهاب سلطان الأحبار والولاة ، ولا دخل فيها ادعاء النبوة أصلا وهى لا تخول النبى ، ولا مدعى النبوة أن يحجب المغيب المجهول من مشيئة الله .

ولكن الايمان بالعقل المسئول ، هو الباعث البين الذى يفسر ما لم يفسره صغار العقول من اختتام النبوة واختتام الكهانة واختتام سلطان الحاكمين على الضمير ، وان انتظامه كله على هذه السنة المتفقة لهو الآية الناطقة بارادة الله .

روح وجسد

عقيدة الروح احدى العقائد الغيبية فى القرآن ٠٠ والعقائد الغيبية أساس عميق من أسس التدين ، تقوم عليه كل ديانة يطمئن اليها ضمير الانسان ، ولكن الفضيلة الأولى فى عقائد القرآن الغيبية انها لا تعطل عقول المؤمنين بها ، ولا تبطل التكليف بخطاب العقل المسئول ، وهو يؤدى حق التمييز وحق الايمان والاسلام : اسلام الأمر كله الى الخالق المعبود ٠٠

وعقيدة الروح احدى العقائد « الغيبية » التى نلمس فيها هذه الفضيلة ، كأنها من حقائق الحس وان وجب على العقل الانسانى أن يؤمن بعلمه القليل فيها ، وأن يسلم تسليم الايمان بأنها من علم الله ٠٠

ذلك بأن الايمان بالروح ، لم يفرض على العقل البشرى فى القرآن الكريم نقيضة من النقائض التى تشطره بين ضدين متدابرين ، ولم يفصم النفس البشرية بفاصم من الحيرة بين الخلقتين : خلقة الانسان روحا مجهول القوام ، وجسدا معروف المطالب والغايات ، محسوس اللذات والآلام

فالروح والجسد فى القرآن الكريم ملاك الذات الانسانية ، تتم بهما الحياة ولا تنكر أحدهما فى سبيل الآخر ، فلا يجوز للمؤمن بالكتاب أن يبخس للجسد حقا ليوفى حقوق الروح ، ولا يجوز له أن يبخس للروح حقا ليوفى حقوق الجسد ، ولا يحمد منه الاسراف فى مرضاة هذا ولا مرضاة ذاك ٠٠ وعلى الله قصد السبيل

والقرآن الكريم ينهى عن تحريم المباح كما ينهى عن اباحة المحرم :

* * *

« يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين • وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون »

« سورة المائدة »

* * *

والقرآن الكريم يعلم المؤمن به أن يكسب الطيبات من صنع يده ، وأن ينفق منها غير مسرف فى انفاقه ، وأن ينعم بالطيبات من ثمرات الأرض وخيراتها لأنها نعمة مشكورة لا يحل له أن يجتنبها :

* * *

« يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض »

« سورة البقرة »

* * *

« يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون »

« سورة البقرة »

* * *

ومن تمكين الانسان فى الأرض أن يبتغى فيها معيشته ويسيم فيها مطيته ، وأن يتخذ منها زينته ، ويتم بها عدته ، ولا يزهد فى شىء من خيراتها يخرجه لنفسه أو تخرجه له الأرض من فضل ربه :

* * *

« والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون • وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين • هو الذى أنزل من

السماء ماء لـكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون • ينبت لـكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعنـــاب ومن كل الثمرات ، ان فى ذلك لآية لقـــوم يتفكرون »

« سورة النحل »

* * *

بل الزينة للعبادة واجبة كوجوبها لمقاصـــد الدنيا ومطالب المعيشة ، والخطاب فى هذا موجه الى بنى آدم لأنه نعمة مرضية من نعم الانسانية ، ومن تمييز الله لهذا الانسان على سائر الحيوان :

* * *

« يابنى آدم خذوا زينتكم عنـــد كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين • قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق »

« سورة الاعراف »

* * *

« ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش »

« سورة الاعراف »

* * *

فهو من تمكين بنى آدم بين خلائق الله ، وهو من حق المعيشـــة الأرضية وواجب الحياة الدنيوية ، لا تناقض فيه بين روح وجسد ، ولا تنازع فيه بين دنيا وآخرة ، ولا فصام فيه للذات الانسانية يحار فيـــه العقـــل وتتمزق به أوصال الضمير

وقوامه فى خطاب التبليغ للانسان من بنى آدم كافة :

* * *

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا »

« سورة القصص »

* * *

فليس السعى فى سبيل الدنيا ضلالا عن سبيل الآخرة ، وليس فى القرآن فصام بين روح وجسد ، أو انشقاق بين عقل ومادة ، أو انقطاع بين سماء وأرض ، أو شتات فى العقيدة يوزع « الذات الانسانية » بين ظاهر وباطن وبين غيب وشهادة ، بل هى العقيدة على هداية واحدة تحسن بالروح كما تحسن بالجسد ، فى غير اسراف ولا جور عن السبيل :

* * *

« ومنها جائر • ولو شاء لهداكم أجمعين »

* * *

ان القرآن الكريم بهذا الالهام الصادق ، ينقذ العقل من نقائض التفكير ، ولا ينحيه من نقائض التكليف وحسب ، أو من نقائض الحيرة بين العالمين فى حقائق الدين ، ولا مزيد

فمن ضلال التفكير قديما ، أنه ساق كبار العقول الى ذلك الفاصل المعتسف بين عالم النور والفلك الأعلى ، وعالم التراب والأرض السفلى ..

كل ما فوق القمر فهو صفاء وطهارة ، وكل ما دون القمر فهو كدر ودنس ، وكل ما هنالك فهو جوهر خالص ، وكل ما دونه فهو عرض مشوب أو أعراض لا يصفو لها وجود ولو أشرق عليها عالم النور

وعلى مثل هذا « التفاضل » المسلم بين النور والتراب ، وبين الجوهر والعرض ، قد دار كل ما دار قديما وحديثا ـ فى الدين والعلم ـ من عزل أصيل بين الصفاء والكدرة ، وبين العقل والمادة ، وبين الروح والجسد ، وبين النقيضين من النور والظلام ..

ان هذا الاعتساف فى التفريق بين هذين الوجودين المتقابلين ، قد عطل العقل زمنا طويلا عن فهم حقائق الحس ، كما عطله ولا يزال يعطلـه عن فهم حقائق التكليف وحقائق الأديان

ان العقل ليعلم اليوم ان ذرات التراب وذرات الضـياء « من معـدن واحد ، وان الحجر اليابس يتفتت فاذا هو شعاع ، وان الشعاع المطلق ينعقد ويتقابل فاذا هو حجر ، وان الفيصل بـين ضياء الفلك وضياء العقـل قائم لا شك فيه ، ولكن لا شك كذلك فى خفاء هذا الأمر على العلم كخفـائه على الايمان ..

فماذا يقول العالمون بالذرة من « المؤمنين » بالمادة دون الروح ؟

ماذا يقول عن عقـل « الدماغ » كيف يرى ما لا تراه العـين بشعاع الضياء ؟

سيقول علما ما قال به قارىء الكتاب ايمانا حين قيـل له عن الروح فسمع وصدق وقلبه مطمئن بالايمان :

* * *

« قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا »

« سورة الاسراء »

النفس

تكلم حكماء اليونان عن العقل والروح والنفس بمعانيها التى تنسب الى الكون ..

وتكلموا عن العقل والروح والنفس بمعانيها التى تنسب الى الانسان ..
ورتبوها على حسب صفاتها وعلو جوهرها ، فكان العقل عندهم أولها وأشرفها ، لأن جوهر العقل المطلق هو الله جل شأنه ، والعقل الالهى هو العقل الفعال Poietikos المنزه عن المادة والهيولى ، وعنه يصدر العقل الانسانى أو العقل المنفعل Pathetikos

ثم تأتى الروح والنفس بعد ذلك فى الصفاء والشرف .. فعندهم أن الروح أقرب الى عنصر النور ، وأن النفس أقرب الى عنصر الهواء والتراب ، ويقول أتباع أفلاطيون ان العقل الالهى فيض منعم صدر عنه « النفس » ومنه صدر ما دونها من الموجودات على ترتيب شرفها وصفائها ، وهم يذكرون النفس بصيغة المذكر ويتابعهم فى ذلك من كتبوا بالعربية وتابعوهم فى مذاهبهم الصوفية ..

والروح أرفع من النفس فى درجات الوجود ودرجات الحياة عند أكثر حكماء اليونان ، فمنهم من ينسب النفس الى الكائنات العضوية جميعا ومنها كل نبات ينمو ويلد ويوصف ببعض صفات الأحياء ، فمعنى النفس عندهم على هذه الصفة مرادف لمعنى « الحركة الحيوية » أو معنى القوة التى تجعل أعضاء الجسم الحى مخالفة للأجسام المادية فى قابلية النمو والتوليد ، ونصيبها من الارادة أكبر من نصيب الجماد وأصغر من نصيب الروح ، فانها لا تملك الانتقال من المكان الذى هى فيه ..

فالعقل والروح والنفس قوى حية على هذا الترتيب من الشرف والصفاء ، والانسان له نصيب من العقل .. ولكنه دون العقل الفعال فى

جوهره وتنزهه عن المادة والهيولى ، وله روح يعلو به على سائر الموجودات ، ونفس قد يقترب بها من الكائنات التى تنمو وتلد وتريد على درجات ..

ان هذا الاختلاف بين هذه القوى فى مصطلح الحكمة اليونانية ، وفى لغة الكتاب المبين ، يقاس من ناحية الى كثافة المادة ويقاس من ناحيـــة الى المثل الأعلى ، وهو الله

وقد يقاس الكمال فى مصطلح الحكمة اليونانيـــة الى الجوهر بمقـدار ارتفاعه ، والى المادة أو الهيولى بمقدار هبوطه ..

ولكن كمال هذه القوى فى لغة القرآن مقيس الى كمال الله جل شأنه .. فأرفعها وأشرفها ما كان أقربها الى الصفات الالهية ، وأدناها وأخسها ما كان أبعدها من تلك الصفات ..

ومن المقابلة بين هذه القوى ، كما ذكرت فى الكتاب المبين ، قد نتبين أن « الروح » هو أقربها الى الحياة الباقية وأخفاها عن المدارك الحسية ، وانه الجانب الذى استأثر الله بعلمه واحتجب عن أنبيـــائه ، لأنه سر الوجـود المطلق .. لا قدرة للعقل الانسانى المحدود على الاحاطة به ووعيـــه الا بما يناسبه من الاشارة والتقريب :

* * *

« **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا** »

* * *

أما العقل والنفس فى بيان القرآن الكريم ، فالراجح أن النفس أقربهما الى الطبع أو القوة الحيوية التى تشمل الارادة كما تشمل الغريزة ، وتعمـل واعية كما تعمل غير واعية ، وتأتى فى مواضعها من الآيات الكثيرة مرادفـة للقوة التى يدركها النوم ، والقوة التى يزهقها القتل ، والقـــوة التى تحس النعمة والعذاب وتلهم الفجور والتقوى ، وتحاسب عـلى ما تعمـل من حسنة

وسيئة ٠٠ فهى القوة التى تعمل وتريد ، مهتدية بهدى العقل أو منقادة لنوازع الطبع والهوى ، وتوضع لها الموازين بالقسط يوم القيامة ٠٠

* * *

« الله يتوفى الانفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها »

« سورة الزمر »

* * *

« وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار »

« سورة الأنعام »

* * *

واذا ذكر قتل النفس « فى القرآن » ، فانما هو قتل الانسان أو الناس على حسب الخطاب الى الفرد أو الجماعة :

* * *

« من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا »

« سورة المائدة »

* * *

« ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيما »

« سورة النساء »

* * *

« ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم »

« سورة البقرة »

* * *

ولكن الانسان أعم من النفس لأنه مسئول أن ينهاها :

* * *

« وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى • فان الجنة هى المأوى »

« سورة النازعات »

فجملة هذه القوى من النفس والعقل والروح هى « الذات الانسانية » تدل كل قوة منها على « الذات الانسانية » فى حالة من حالاتها ، ولا تتعدد « الذات الانسانية » بأية صورة من صور التعدد لأنها ذات نفس أو ذات روح أو ذات عقل ، فانما هى انسان واحد فى جميع هذه الحالات ، وهى تعبيرات عنها فى جميع اللغات تقضى بها ضرورة الكلام عن كل قوة خفية تدرك أعمالها ولا تدرك مصادرها ، وعلى هذا النحو تكلم الناس عن ملكات العقل والنفس والروح ، وعما ينسب اليهما من وعى باطن ووعى ظاهر ، ومن ضمير ووجدان وخيال وحافظة وبديهة وروية الى غير هذه الأسماء التى تتعدد للتمييز بين الأعمال ، وان لم تتعدد فى مصدرها المعلوم أو المجهول ••

وقد ذكرت النفس فى القرآن بجميع قواها التى يدرسها اليوم علماء النفس المتخصصون لهذه الدراسات فى موضوعاتها الحديثة ••

فقوة الدوافع الغريزية تقابل النفس « الأمارة بالسوء » :

* * *

« وما أبرىء نفسى ان النفس لأمارة بالسوء »

« سورة يوسف »

* * *

وقوة النفس الواعية تقابل النفس الملهمة :

* * *

« ونفس وما سواها • فألهمها فجورها وتقواها • قد أفلح من زكاها • وقد خاب من دساها »

« سورة الشمس »

* * *

وقوة الضمير تقابل النفس اللوامة ، وهى النفس التى يقع منها الحساب كما يقع عليها ، وجاء ذكرها من أجل ذلك مقرونا بيوم القيامة :

* * *

« لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة »

« سورة القيامة »

* * *

ثم ذكرت موصوفة بالابصار والعلم بمواقع الاعذار :

* * *

« بل الانسان على نفسه بصيرة • ولو ألقى معاذيره »

« سورة القيامة »

* * *

وقوة الايمان والثقة بالغيب تقابل النفس المطمئنة :

* * *

« يا أيتها النفس المطمئنة • ارجعى الى ربك راضية مرضية »

« سورة الفجر »

* * *

وفي كل موضع من هذه المواضع ، تذكر النفس الانسانية بعامة هذه القوى .. فتجمعها خاصة واحدة هى خاصة الانسان فى القرآن ، وهما كما نقدم خاصة الكائن المكلف المسئول

* * *

« كل نفس بما كسبت رهينة »

« سورة المدثر »

* * *

« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا »

« سورة الأنبياء »

* * *

« يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا »

« سورة آل عمران »

* * *

« اذا السماء انفطرت . واذا الكواكب انتثرت . واذا البحار فجرت . واذا القبور بعثرت . علمت نفس ما قدمت وأخرت . يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك . فى أى صورة ما شاء ركبك »

« سورة الانفطار »

* * *

« واذا النفوس زوجت . واذا الموءودة سئلت . بأى ذنب قتلت . واذا الصحف نشرت . واذا السماء كشطت . واذا الجحيم سعرت . واذا الجنة أزلفت . علمت نفس ما أحضرت »

« سورة التكوير »

وجملة ما قيل فى معنى « النفوس زوجت » أنها تقرن بمقوماتها وأعمالها
أو تضم الى أشباهها وقرنائها

فحساب النفس من حساب الانسان ، ولكن الـــذات الانسانية أعم من
النفس ومن العقل ومن الروح حين تذكر كل منها على حـــدة ، فان الانسان
يحاسب نفسه لينهاها عن هواها ، ولكن الروح من أمر الخالق الذى لا يعلم
الانسان منه الا ما علمه الله ، ويتوسط العقل بين القوتين فهو وازع الغريزة
ومستلهم لهداية الروح

ولعلنا نفقه من هدى القرآن ترتيب هذه القوى فى الذات الانسانية .
وعمل كل منها فى القيام بالتكليف وتمييز الانسان بمنزلة الكائن المسئول ..

فالانسان يعلو على نفسه بعقله ، ويعلو على عقله بروحه ، فيتصـــل من
جانب النفس بقوى الغرائز الحيوانية ودوافع الحياة الجسدية ، ويتصـــل من
جانب الروح بعالم البقاء وسر الوجود الدائم وعلمه عند الله .. وحق العقل
أن يدرك ما وسعه من جانبه المحدود ، ولكنه لا يدرك الحقيقة كلها من جانبها
المطلق الا بايمان والهام

الأمـــانـــة

وردت كلمة الأمانة والأمانات في خمسة مواضـــع من القرآن الكريم ، وكلها بالمعنى الذى يفيد التبعة والعهد والمسئوليـة وخصصت هـذا المعنى فى آية من « سورة البقرة » بوديعة المال وما اليه · اذ قال تعالى فى ســياق وثائق الديون :

* * *

« يا أيهـا الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجـل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كمـا علمه الله » ··· الى قوله تعالى : « فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه » .

* * *

ففى هذه الآية خصصت الأمـــانة بما يؤمن عليـــه المرء من الودائع والديون ، ولكننا لا نخرج من الآية بغير التذكير المؤكد بمعنى الأمانة العامة ، وهى الحق والفريضة ومنها حق العلم وفريضته ، فلا يجوز لمن علم علما أن ينسى حقه :

* * *

« ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله » .

* * *

وكل ما ورد فى غير سياق الديون والودائع فالحكم فيه عام ، وان ورد على سبب خاص ، لأن مناسبات النزول لا تمنع سريان الحـكم والتبليغ الى جميع المخاطبين بآيات الكتاب .

جاء فى سورة النساء : « **ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** »

* * *

قال الامام الزمخشرى فى الكشاف : « الخطاب عام لكل أحد فى كل أمانة .. وقيل : نزلت فى عثمان بن طلحة بن عبد الدار ، وكان سادن الكعبة ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة يوم الفتح أغلق عثمان باب الكعبة وصعد السطح وأبى أن يدفع المفتاح اليه وقال : « لو علمت انه رسول الله لم أمنعه » ، فلوى على بن أبى طالب رضى الله عنه يده وأخذه منه وفتح ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى ركعتين . فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسدانة ، فنزلت الآية ، فأمر عليا أن يرده الى عثمان ويعتذر اليه ، فقال عثمان لعلى : « أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق ؟ » فقال : « لقد أنزل الله فى شأنك قرآنا » . وقرأ على الآية . فقال عثمان : « أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله .. »

ومضى الامام الزمخشرى فى تفسير الآية الى أن قال : « وقيل هو خطاب للولاه بأداء الأمانات والحكم بالعدل ، وقرىء الأمانة على التوحيد »

وفى الجلالين ان الآية « وان وردت على سبب خاص فعمومها معتبر بقرينة الجمع » ..

ويقول الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده : « ان الظاهر أنها نزلت قبل فتح مكة وأن النبى عليه السلام تلاها استشهادا »

ومن تفسيرات المتأخرين تفسير الجواهر للشيخ طنطاوى جوهرى يقول ان الأمانة « كل ما أؤتمنتم عليه من قول ، أو عمل ، أو مال ، أو علم ، وبالجملة كل ما يكون عند الانسان من النعم التى تفيد نفسه وغيره » وان الخطاب موجه الى الناس عامة والى الحكام وولاة الأمور

وكذلك الأمانات والعهد فيما ورد فى سورة المؤمنون :

« والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون »

* * *

فهى تشمل كل ما يرعاه الانسان من عهد وذمة . وهذا هو معنى الأمانات فى سورة الأنفال ، وعلى هذا المعنى — اجمالا — يفهم كل تبليغ خوطب به الناس عامة وان نزلت به الآيات لمناسبة خاصة

أما الامانة التى عرضت على الخلق عامة ، فحملها الانسان ولم يحملها أحد من خلقه ، فهى أعم من المناسبات الخاصة والمناسبات العامة بالنسبة الى أحكام التبليغ ، لان الآمر فيها أمر التكوين والاستعداد بالفطرة التى فطر عليها العاقل وغير العاقل واستعد لها الحى وغير الحى ، والمخاطب بالتبليغ وغير المخاطب .. وفى هذا الموضع من القرآن الكريم ذكرت هذه الفطرة مقرونة بفطرة الخليقة كلها ، وذكرت ومعها صفة الانسان التى تخصه بين عامة المخلوقات حين يتقبل أعباءها ويحملها ، وما كان ليحملها الا أن يتعرض لتبعاتها فهو ظلوم جهول .. ظلوم لأنه يتعدى الحدود وهو يعرفها ، وجهول لأنه يتعدى تلك الحدود وهو لا يعلمها ، وعنده أمانة العقل التى تهديه الى عملها .. وما من كائن غير الكائن العاقل يوصف بالظلم والجهل ، لأنه لا يعرف الحد الذى يتعداه ولا تناط به معرفة الحدود . وانما يوصف بالظلم والجهل من يصح أن يوصف بالعدل والمعرفة ، ومن يصح أن يسأل عن فعل يريده فى الحالين

* * *

قال تعالى : « انا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا »

« سورة الأحزاب »

* * *

وذكرت هذه الفطرة الانسانية فى موضع آخر من الكتاب ، مع ذكر تكريم الانسان وولايته زمام الكائنات مفضلا على كثير من المخلوقات ، فقال تعالى فى سورة الاسراء :

« **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات . وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** »

* * *

« **وكثيرا ممن خلقنا** » فى هذه الآية تشمل كل مخلوق لم يكن أهلا لأمانة الخير والشر أو لأمانة التكليف ، بما أودع فيه من فطرة التكوين

* * *

ولقد وضح معنى « الأمانة » فى هذا الحكم العام وضوحا لا يقبل اللبس أو الانحراف بالفهم عن جوهره المقصود ، وهو التكليف .. ومن لم يذكره من المفسرين بنصه ، ذكره بمقتضياته ومتعلقاته ، وهى ملازمة له لا تنفك عنه ..

وهذه أمثلة من أقوال المفسرين الذين تناقلوا الروايه بالمعنى الذى فهم من كلمة الأمانة منذ صدر الاسلام الى القرن الرابع عشر للهجرة

قال الامام الزمخشرى المتوفى سنة ٥٢٨ للهجرة : « يريد بالأمانة الطاعة فعظم أمرها وفخر شأنها ، ويراد بها الطاعة لأنها لازمة الوجود كما أن الأمانة لازمة الأداء ، وعرضها على الجمادات واباؤها واشفاقها مجاز ، وأما حمل الأمانة فمن قولك : فلان حامل للأمانة أو محتمل لها ، نريد انه لا يؤديها الى صاحبها حتى تزول عن ذمته ويخرج من عهدتها »

* * *

وقال الفيلسوف الفخر الرازى المتوفى سنة ست وستمائة للهجرة : « انا عرضنا الأمانة أى التكليف وهو الأمر بخلاف ما فى الطبيعة ، واعلم أن هذا النوع من التكليف ليس فى السماوات ولا فى الأرض لأن الأرض والجبل والسماء كلها على ما خلقت عليه : الجبل لا يطلب منه السير ، والأرض لا يطلب منها الصعود ولا من السماء الهبوط ، ولا فى الملائكة ، لأن الملائكة وان كانوا مأمورين منهيين عن أشياء لكن ذلك لهم كالأكل والشرب لنا ، فيسبحون الليل والنهار لا يفترون كما يشتغل الانسان بأمر موافق لطبعه ... »

قال الامام الفيلسوف فى تفسير حمل الأمانة : « لم يكن اباؤهن كاباء ابليس فى قوله تعالى : « أبى أن يكون مع الساجدين » من وجهين أحدهمـا ان هناك السجود كان فرضا ، وهاهنا الامانة كانت عرضـا ، وثانيهما ان الاباء كان هناك استكبارا وهاهنا استصغارا : استصغرن أنفسهن ، بدليـل قوله تعالى : « وأشفقن منها » ··· وقال بعضهم فى تفسير الآية ان المخلوق على قسمين : مدرك وغير مدرك ، والمدرك منه من يدرك الكـلى والجزئى مثل الأدمى ، ومنه من يدرك الجزئى كالبهائم تدرك الشعير الذى تأكله ولا تفكر فى عواقب الأمور ولا تنظر فى الدلائل والبراهين ، ومنه من يدرك الكلى ولا يدرك الجزئى كالملك يدرك الكليات ولا يدرك لذة الجماع والأكل · قالوا : والى هذا أشار الله تعالى بقوله : « ثم عرضهم على الملائكـة فقال : أنبئونى بأسـماء هؤلاء » ، فاعترفوا بعدم علمهم بتلك الجزئيـات ، والتكليف لم يكن الا على مدرك الأمرين · اذ له لذات بأمور جزئية فمنع منها لتحصيل لذات حقيقية هى مثل لذة الملائكة بعبادة الله ومعرفته ، وأما غيره فان كان مكلفـا يكون مكلفا لا بمعنى الأمر بما فيه عليهم كلفة ومشقة ، بل بمعنى الخطاب · فان المخاطب يسمى مكلفا كما أن المخاطب مكلف ··· »

* * *

وقال الامام ابن كثير المتوفى سـنة ٧٧٤ للهجرة : « ···· عن ابن عباس : يعنى بالأمانة الطاعة ، عرضها قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقها ، فقال لآدم : انى قد عرضت الأمانة على السـماوات والأرض والجبـال فلم يطقنها ·· فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال : يا رب ·· وما فيهـا ؟ قال : ان أحسنت جزيت وان أسأت عوقبت ، فأخذها آدم فتحملها ··· وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : الأمانة الفرائض ، عرضـها الله على السـماوات والأرض والجبال ، ان أدوها أثابهم وان ضيعوها عذبهم ، فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية ، ولكن تعظيما لدين الله ألا يقوموا بها ، ثم عرضهـا على آدم فقبلها بما فيها ··

« قال مجاهد وسـعيد بن جبيروالحسن البصرى وغير واحد أن الأمانة هى الفرائض ·· ثم أورد الامام ابن كثير أقوالا أخرى مروية بأسماء أصحابها ،

ويعقب عليها قائلا انها كلها ، لا تنافى بينها ، بل هى متفقة وراجعة الى انها التكليف وقبول الأوامر والنواهى بشرطها »

* * *

وجاء فى تفسير الامام السيوطى المتوفى سنة ٩١١ للهجرة : « انا عرضنا الامانة ، الصلوات وغيرها ، مما فعلها منه الثواب وتركها منه العقاب .. »

* * *

وقال الامام محمد جمال الدين القاسمى المتوفى سنة ١٣٣٢ للهجرة :

« .. عبر عنها بالأمانة تنبيها على أنها حقوق مرعية أودعها الله تعالى المكلفين ، وائتمنهم عليها ، وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد ، وأمرهم بمراعاتها والمحافظة عليها وأدائها من غير اخلال بشىء من حقوقها ، ومعنى الآية أن تلك الأمانة فى عظم الشأن بحيث لو كلفت هاتيك الاجرام العظام — التى هى مثل فى القوة والشدة — مراعاتها ، وكانت ذات شعور وادراك ، لأبين قبولها وأشفقن منها ... أما قوله تعالى : وحملها الانسان أى عند عرضها عليه ، اما باعتبارها بالاضافة الى استعداده ، أو بتكليفه اياها يوم الميثاق — أى تكلفها والتزمها مع ما فيه من ضعف البنية ورخاوة القوة ، وهو اما عبارة عن قبوله لها بموجب استعداده الفطرى ، أو من اعترافه بقوله : بلى .. وقوله تعالى : « انه كان ظلوما جهولا » اعتراض وسط بين الجمل وغايته للايذان من أول الأمر بعدم وفائه بما عهده وتحمله ، أى انه كان مفرطا فى الظلم مبالغا فى الجهل ، أى بحسب غالب أفراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة ... »

* * *

ونقل صاحب تفسير الجواهر زبدة هذه المعانى ، ثم نقل تفسير الفيروزبادى لمعنى حمل الأمانة ، اذ قال : « فأبين أن يحملنها ... وحملها الانسان » أى أبين أن يخنها وخانها الانسان . قال : والانسان هنا هو الكافر والمنافق .

ولا نختم هذه المقتبسات قبل أن نعود الى الاستدراك الذى بدأناها به ، وهو الاتفاق على معنى التكليف ، وان الاختلاف على المذام التى تترتب عليه انما هو الدليل على معنى الاستعداد الفطرى للمذام وما عداها ، أو على معنى الوقوع فى المذمة بمجاوزة حدود التكليف ، ظلما مع العلم بها ، وجهلا مع القدرة على التعلم والاسترشاد فى أمرها

الا أن معنى الاستعداد الفطرى لا يخفى اذا روجعت الآيات التى ورد فيها ذكر صفات « الانسان » بمعنى جنس الانسان فانه يذكر بهذه الصفات فى مواضع كثيرة مع ذكر آيات التكوين والخلق وتصريف قوى الطبيعة ، فقد ذكر تكريم بنى آدم مع السلطان على البر والبحر والزرع والضرع والتفصيل على كثير من خلائق الله ، وذكر ظلم الانسان وجهله مع انفراده بالفطرة المستعدة للتكليف بين خلق السماوات والأرض ، وذكر فى غير هاتين الآيتين بقبوله للخير والشر مع الايمان بالجزاء والتذكير بخلق الليل والنهار وخيرات الأرض وحساب الأفلاك ، ومن ذلك وفيه الاشارة الى أمثاله من الآيات :

* * *

« ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا . وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما • ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا • وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا »

« سورة الاسراء »

* * *

فقد ذكرت هنا فطرة الاستعداد للخير والشر مع ذكر الايمان بالجزاء وتصريف الليل والنهار ، وعجلة الانسان على حساب العواقب وهو أهل للحساب ، حساب الشاهد والغائب ، وحساب النور والظلام وحساب السنين والأيام

التكليف والحرية

من شروط التكليف طاعة وحرية ..

وهذه بديهية يغفل عنها كثير من المجادلين في قضية القدر ، وفي قضية الايمان ، وفي قضية التكليف والجزاء ، فيقصرون النظر على شرط الحرية ويهملون شروط الطاعة كأنه مناقض للجزاء وكأنه من اللازم عقلا أن يكون الجزاء مقرونا بالحرية المطلقة ، وهي في ذاتها استحالة عقلية بكل احتمال يخطر على البال في فهم خلق الانسان .. فمن بحث عن الايمان بالتكليف غير ناظر الى شرط « الطاعة » فلا جرم يضل عنه ولا ينتهي فيه الى قرار ، لأنه يبحث عن شيء آخر ولا يبحث عن التكليف ولا على الايمان ..

في القرآن خطاب متكرر الى العقل ، وبيان متكرر لحساب الانسان العاقل على الخير والشر ، مع اسناد الارادة اليه في استحقاقه للثواب والعقاب ..

وفيه آيات صريحة تسند الارادة الى الله ، وتقرر انه ـ سبحانه وتعالى ـ هو الخالق المقدر الذي يقدر الهداية والضلال ، ويعطي كل شيء خلقه ويهديه ، وهي آيات كثيرة مقصودة بالتكرار وان لم تبلغ في الكثرة عدد آيات الخطاب والتكليف ، وآيات التذكير بالعقل والنظر والتمييز والتفكير

* * *

« **فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم** »

« سورة البقرة »

* * *

« **قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه**

مخلصين له الدين كمـــا بدأكم تعودون • فريقا هدى وفريقـــا حق عليهم الضلالة »

« سورة الاعراف »

* * *

« سبح اسم ربك الأعلى • الذى خلق فسوى • والذى قدر فهدى »

« سورة الأعلى »

* * *

« وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم »

« سورة ابراهيم »

* * *

« يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحيـــاة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء »

« سورة ابراهيم »

* * *

وكثرة الآيات بهذا المعنى تبعد عن الذهن أن يكون فيها مجال للتأويل بغير معنـــاها الظاهر على اختلاف العبارة والمناســبة ، فمعناها الظاهر الذى لا تأويل فيه ان الله سبحانه وتعالى هو الفعال لما يريد الذى يخلق عبـــاده ويخلق ما يعملون

أفى هذا تناقض فى حكم العقـــل اذا نظرنا الى الأمر كله نظرة المعقول ولم نقصر النظر الى النصـــــوص ، أو الى واجب الاعتقـــاد بمقتضى هـــذه النصوص ؟ ••

ان الرجوع بالقضية الى أسسها المحتملة على كـــل احتمـــال ، ينفى

التناقض ، ويرينا كيف يكون هـذا الاعتقاد « حلا للمشكلة » من أسسها المفروضة جميعا ، وخروجا من التناقض الذى يلزمها على كل احتمال غير هذا الاحتمال ..

وليكن الانسان روحا وعقلا خلقه الله ، أو يكن تركيبا عارضا من تراكيب المادة لم يخلقه أحد ، على قول المؤمنين بالمادة مجردة من الفكر والارادة ..

وليكن التكليف ارادة من عند الله أو يكن ضرورة من فضاء الواقع لا يرتبط بها أمر ولا جزاء ..

فكيف يتصور العقل ارادة الانسان على كل احتمال ؟

انه لا يتصورها ارادة مطلقة من جميع القيود ، لأن ارادة انسان واحد تنطلق بغير قيد هى قيد لكل انسان سواه ، وكيف يأتى هذا الانسان الواحد بارادته المطلقة منفردا بها بين أمثاله المقيدين ؟ .

اما أن يوجد الناس جميعا بارادة مطلقة لكل منهم على سواء ، فهذه هى الاحالة العقلية فى الفرض والتقدير ، قبل الوصول بها الى الايجاد والتحقيق ..

فاذا كانت الارادة المطلقة هى ارادة الله ، فخلق الناس مكلفين بغير ارادة لهم شىء غير معقول وغير مقبول ، لأن سقوط التكليف لا معنى له فى هذه الحالة الا أن يخلق الناس جميعا متشابهين متماثلين متساوين فى العمل الصالح الذى يساقون اليه ، كما تساق الآلات ، فلا فضل اذن للعاقل على غير العاقل ، ولا تمييز للانسان على الجماد المجرد من الحس ، فضلا عن الحيوان ..

فاذا وجب تكليف الانسان ، فالعقل الانسانى لا يوجبه الا كما ينبغى أن يوجب على حالة واحدة لا سواها ، وهى حالة الارادة المخلوقة يودعها فيه الخالق كما ينبغى أن تودع ، وهى لا ينبغى أن تودع الا على هذا الفرض الذى يدعو اليه القرآن ..

ان الحرية المخلوقة حرية صحيحة كما ينبغي أن تكون في احتمال العقل المدرك المميز الذى يهتدى باذن الله لما اختلفوا فيه

ولا يقال ان الحرية التى تخلق ليست بحرية •• فان الحرية غير القيد سواء كانا مخلوقين أو مطبوعين ، وسواء كانا من عالم الروح أو من عالم المادة عند التمييز بينهما كما تتمايز قيمة المعدن نفيسا وغير نفيس . وكلاهما مخلوق أو مصنوع ، فان صنعنا للآنية الذهبية وللآنية النحاسية لا ينفى نفاسة الأولى ولا يسوى بين الآنيتين المصنوعتين

وليس فى العقل شىء يسمى حرية مطبوعة ، تعلو على الحرية المخلوقة بالانطلاق من جميع القيود •• لأن الانطلاق من جميع القيود غير معقول ، وغير موجود ••

* * *

واذا وجدت للمخلوقات العاقلة حرية أو وجدت لها ارادة ، فلنرجع الى العقل لنرى كيف يتصورها العقل — أى عقل — وكيف تكون على احتمال واحد دون كل احتمال ••

انها لا تكون سواء فى كل انسان ، لأنها اذا امتنع فيها خلاف القوة لم يمتنع فيها خلاف الزمن والعمر ، ولا خلاف المكان والجسد ، ولا خلاف الصغر والكبر ، ولا خلاف الحركة والجمود

واذا امتنع فيها كل هذا الخلاف فليست هى بشىء ، اذ ليست الموجودات التى لم تتمايز ولم تتنوع بأشياء يقبلها التصور ، بل هى عدم ينقطع عن الوجود ، أو كائن لا تمييز فيه ولا تكليف ولا حسنة ولا سيئة ، ولا ثواب ولا عقاب

فاذا وجد المخلوق حرا ذا ارادة فلا وجود له الا بهذا الاختلاف فى حكم العقل كيفما كان حكم النصوص

واذا قضي العقل بهذا دون سواه ، فالعقـل هو الذى يتصور ارادة الله وارادة الانسان على احتمال واحد دون سواه ..

وحكم الايمان هنا وحكم العقل متماثلان ، اذ كان كل ما عـدا حرية « الايمان » فرضا غير معقول ، بل غير موجود

* * *

ونحن اذن فى حل من القول بكفاية العقل وحده لتلقى خطاب التكليف اذ كان المؤمن والفيلسوف معا يذهبان بالعقل بين نقـائض الفروض ، فلا يستقران على فرض ممكن أو صـالح غير اعتمـاد التكليف عـلى العقـل واعتماد العقل على الايمان

وانما تساورنا الحيرة فى مسائل الايمان عامة من خطأ شائع يوهم أناسا من المتدينين والمنكرين ان الايمان على الـدوام تسليم بما يأباه العقـل وبما يتقبله ـ اذا تقبله ـ وهو مغمض العين مكتوف اليد ، يتسـاوى منه النظر وترك النظر ، بلا اجتهـاد ولا محـاولة ولا موازنة بين ما يجوز وما يمتنع كل الامتناع

هذا ايمان يلغى العقل ويلقى به بعيدا الى طرف التصديق بغير سؤال ولا انتظار جواب .. فاما عقل ولا تصديق ، واما تصديق ولا عقل : ضدين لا يجتمعان ..

* * *

والفرق بعيد بين الايمان الذى يلغى العقل ، والايمان الذى يعمل فيه العقل غاية عمله ، ثم يعلم من ثم أين ينتهي وأين يبتدىء الايمان ..

ان الايمان هنا نتيجة لعمل العقل غاية جهده ، وليس نتيجـة لاهماله وابطال وجوده ..

والعقل يستطيع أن يصل الى هذه النتيجة ، فتلزمه حجة الدعـوة الى التصديق بالغيب المجهول ..

والعقل يستطيع أن يعلم بضرورة الايمان . لأن انكار هذه الضرورة نقيضة عقلية وليس بنقيضة للدين والعقيدة وحسب ، ولا سبيل للعقل الى الايمان بموجود كامل مطلق الكمال يصح أن يؤمن به غير الاعتراف بضرورة هذا الايمان ولزومه ــ منطقا ــ قبل لزومه لهداية الضمير

فالموجود الذى يصح أن نؤمن به هو وجود كامل أبدى ليست له حدود ..

والموجود الذى ليست له حدود لا يحيط به ادراك العقل المحدود ..

فما النتيجة اللازمة لهذه الحقيقة التى لا شك فيها ..
هى احدى اثنتين .. اما انكار جزاف ، واما تسليم بحقيقة تفوق ادراك العقول ..

والانكار الجزاف يوقع العقل فى نقيضين ، وهو تعطيل للعقل أضل له من كل تعطيل ..

الانكار معناه أن سبب الايمان الوحيد ، يكون هو السبب الوحيد للانكار ..

* * *

ان الموجود السرمدى الكامل المطلق الكمال هو الاله الذى نريده بالايمان ، وهذا هو حقه فى ايمان العقلاء بوجوده وربوبيته

ولكن العقل المحدود لا يحيط بالوجود المطلق الذى ليست له حدود

أفيقول العقل اذن : « لا ايمان بهذا الموجود المطلق لأنه هو الموجود الذى يصح فى العقل أن نؤمن به ونبحث عنه ، ولا يصح فى العقول ايمان بغيره ؟ ..

العقل لا يقول هذا ..

والعقل اذا قال بضرورة الايمان على هذه الصفة ، وبهذا الحق ، لم

يكن قد ألغى عمله وأبطل وجوده ، بل هو يبلغ بذلك غاية عمله ، فهو عقل يزيد عليه ايمان ..

ان العقل الذى يزيد عليه الايمـان ، هو العقـل الذى خاطبه القرآن بالتكليف ، أو هو العقل المؤمن الذى تعنيه النبوة بالتذكير والتبشير ، وهو المسئول أن يستمع الى النبى المرسل من عالم الغيب ، فلا معذرة له بعد حجة الغيب والتسليم ، وبعد حجة الشهادة والتفكير ..

* * *

ومع التسليم بهذا الموجود الكامل ، لا يعرف عقل الانسان تكليفا غـير التكليف الذى بسطته نصوص القرآن ، فـلا معنى للتكليف أصـلا ان لم تكن فيه طـاعة وحرية ، ولا معنى للحرية من وراء ارادة الخـالق وارادة المخلوق ..

أسـرة واحـدة

خيل الى علماء القرن السابع عشر من الغربيين أنهم مطالبون بتغيير كتاب العلم من الألف الى الياء ، وان تعريف شيء من الأشياء في عقائد القرون الوسطى كاف لرفضه ولاعادة بحثه ثم اعادته الى الاصطلاح بمدلول جديد

وأول هذه التعريفات المتبدلة تعريف الانسان حسب موضعه من هذا العالم ، لأن الانسان لم يزل في كل عصر ، وفي كل علم ، وفي كل عقيدة ، مقياسا لما عداه من خلائق هذا العالم، بل مقياسا للعالم أجمع ، يتبدل النظر اليه كلما تبدل النظر الى الوجود بأسره ·

لم يتبدل النظر الى مركز الكرة الأرضية من الأجرام السماوية . حتى خيل الى كثير من الفلكيين والجغرافيين أن حقائق السماوات والأرضين قد تغيرت لأن الكرة الأرضية مركز الانسان ··

وقد أعيد النظر الى مكان الانسان من الخليقة كلها ، فوضعه علماء الحيوان بموضع واحد مع طبقة الأحياء التي عرفوها باسم الأوائل primates وهي في الذروة من طبقات الحيوان اللبون

وأعيد « تصنيف » هذا النوع الحيواني فذهب بعضهم بعيدا في تقسيمه الى عناصر ، والى الرجوع بكل عنصر منها الى نوع من القردة الأوائل ، كما سيجيء في الكلام على آراء النشوئيين القائلين بالتطور والارتقاء

والذين قالوا انه نوع واحد لم يرتابوا في تقسيمه الى « عناصر » أو سلالات تكاد – لولا التناسل فيما بينها – أن تعتبر أنواعا مستقلة بتراكيب أبدانها وعقولها ، بل قال بعضهم ان تجارب العلم لم تثبت امكان التناسل بينها ، ولم تنف امكان التناسل بين بعضها وبعض أنواع القردة المشابهة للبشرية ، ويجب أن نتمهل قليلا قبل التحقق من أن السلالات الانسانية

كلها قابلة للتوالد فيما بينها ، كما يتوالد ذكور الحيوان ، واناثه من النوع الواحد بغير عائق للنمو فى دور الحمل ودور الطفولة ٠٠

والذين قنعوا باختلاف العناصر والسلالات ، لم يقنعوا بالقليل من فوارق هذا الاختلاف ٠ فمنهم من كاد يجعل السلالة « الآرية » نوعا « سيكولوجيا » يضارع النوع « البيولوجى » فى الاختلاف وفى قابلية « التفاهم » والتعامل ، و « تناسل » العواطف والأفكار

وعادوا بعد الحرب العالمية الثانية الى التراجع السريع فى هذا « التصنيف » الذى خيل الى أصحابه قبل جيل واحد أنه حقيقة واقعة تستغنى بالنظر عن البرهان ، وما كانوا ليسرعوا هذا الاسراع فى التراجع لولا بلاء « الانسانية » بعواقب ذلك « التصنيف » الوبيل ، لانه التصنيف الذى سوغ لعنصر من العناصر أن يستبيح السيادة على الأمم عنوة ، وأن يستكثر حق الآدمية على تلك الأمم التى لم يدخلها معه فى قرابة الانسان للانسان ٠٠

فمن كبار علماء الأنواع فى العصر الحاضر من يقول ، كما جاء فى كتاب قرن من مذهب دارون : « ان التفرقة بين عناصر النوع الانسانى اعتساف أو توسع فى التعبير ، فقد نقسم النوع الانسانى الى عنصرين كبيرين يسكن أحدهما فى القارتين الآسيوية والأوربية والأمريكتين ، ويسكن الآخر فى افريقية وبلاد الملايا والقارة الاسترالية ٠ فاذا أردنا المزيد من الحصر فقد نقسمها حسب الألوان الى بيضاء وصفراء وحمراء وسوداء وسمراء ٠ ونزيد حصرا فنبلغ بها ثلاثين ، ولا يمنعنا أن نجعلهم مائتين الا صعوبة التفاهم على هذا التقسيم » ٠

* * *

فحوى هذا ، ان فوارق العناصر فوارق أسماء وعناوين ، وأن « الانسان » أسرة واحدة على تعدد أبنائها وتعدد أقسامها واختلاف الألقاب اللغوية التى تطلق على تلك الأقسام

* * *

فحوى هذا أن القرآن قد وضع الانسان ــ علما ودينا ــ فى موضعه الصحيح ، حين جعل تقسيمه الصحيح انه « ابن ذكر وأنثى » وانه ينتمى بشعوبه وقبائله الى الأسرة البشرية التى لا تفاضل بين الاخوة فيها بغير العمل الصالح ، وبغير التقوى ..

* * *

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير »

« سورة الحجرات »

* * *

وقد نسميهم باصطلاح الأسماء « أمما » كثيرة كلما تباعدت بينهم المواطن وتحيزت بهم الحدود ، وتشعبت بينهم العقائد واللغات ، ولكنهم قبل هذا الاختلاف أمة واحدة لها اله واحد : هو رب العالمين

* * *

فاذا كانوا قد تعددوا شعوبا وقبائل كما جاء فى الآية الشريفة ، فانما كان هذا التعدد أقوى الأسباب لاحكام صلة التعارف بينها وتعريف « الانسانية » كلها بأسرار خلقها .. فان تعدد الشعوب والقبائل يعدد المساعى والحيل لاستخراج كنوز الأرض واستنباط أدوات الصناعة ، على حسب المواقع والأزمنة ، وعلى حسب الملكات والعادات التى تتفتق عنها ضرورات العيش والذود عن الحياة . فينجم عن هذا ما لابد أن ينجم عنه من تعدد الحضارات وأفانين الثقافة ، وتزداد « الانسانية » عرفانا بأسرار خلقها ، وعرفانا بخالقها ، واقترابا فيما بينها ، وتضطر اليه اضطرارا لما تحسه من اشتباك منافعها وسريان الضرر من قريبها الى بعيدها .

* * *

« ومن آيات خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، ان فى ذلك لآيات للعالمين »

« سورة الروم » -

وهذا هو حكم القرآن في وحـــدة بني الانسان ، وفي تدعيم هـــذه الوحدة ، بما يحسبه الناظر المتعجل بابا من أبواب الافتراق والتباين ، وهو تعدد الشعوب والقبائل واختلاف اللغات والألوان :

* * *

« وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمـــة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون »

« سورة يونس »

* * *

« كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين »

« سورة البقرة »

* * *

« ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين »

« سورة هود »

* * *

« ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولـكن ليبلوكم فيما آتاكم فاسـتبقوا الخيرات »

« سورة المائدة »

* * *

ان هذه الوحدة فى صلة الانسان بالانسان مشدودة الازر بالوحـــدة بين الناس كافة فى الصلة بالله – ربهم ورب العالمين – الذى يســوى بينهم ويدينهم بالرحمة والانصاف ، ثم لا يقضى بينهم فيما اختلفوا فيه الا بقسطاس العدل ، أيهم أحسن عملا وأقرب الى التقوى واستباق الخيرات :

* * *

« والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم »

« سورة البقرة »

« قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحـــد . فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا »

« سورة الكهف »

« ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون »

« سورة الأنبياء »

« قل انما يوحى الى أنما الهكم اله واحد فهل أنتم مسلمون »

« سورة الأنبياء »

* * *

ولقد كان من الحق فى ذمة العلم أن يتريث علماء المقابلـــة بين الاديان طويلا ، عند هذه المرحلة العظمى فى تاريخ العقيدة ، وفى تاريخ الفكر ، وفى تاريخ القيم الأخلاقية ، بل فى تاريخ الحياة الانسانية من مطلعها فى ظلمات الماضى المجهول الى هذا الأوج الســـابق الذى ارتفعت اليـــه بعـد ألوف السنين ، وما كانت لترتفع اليه بعمل ولا عقيـــدة غير العقيدة فى رب واحد هو رب العالمين ..

انها لم تكن كلمة فى موضع كلمة ، ولم تكن صفة من صفات التقديس بديلا من صفة مثلها ، ولم تكن رمية من غير رام على لسان ناسك ذاهل يقول فى تسبيح المعبود كيف يقول ..

انها لم تكن لفتة من لفتات الساعة ، تهيم بالنظر الشـــارد فى تيه من السحر والكهانة ، ثم لا تبالى أن تعود الى خلفها كما تعود الى أمامها ، على غير هدى ..

لو كانت كذلك لذهبت فى غمار الكلمات والأوهام ، ولم يبال من لفظ بها أو استمع اليها أن يعيدها مرتين ..

ولكنها كانت قبلة يستقبلها الانسان على سواء لم يكن بالغــه لو لم يعتدل اليه فى مطلع الطريق ، وهيهات ـ على غير هــذه القبلة ـ أن ينتظم للانسان مسلك معقول الى الرشد والضمير ..

ان قيم الأعمال والأخلاق ، لا قوام لها مع الايمان برب هو رب هــذا القبيل أو هذا الشعب ، بين من خلق الله من قبائل لا يختارها وشــعوب لا ينظر اليها ..

وان هذه القيم لغو عند أناس يحيق بهم الذنب وما اقترفوه ، ويهبط عليهم الغفران وما صعدوا اليه ويتقبلون بين النقمة والنعمة بغير جريرة من اثم وبغير شفاعة من توبة ، وبغير نية للاساءة ولا نية للتكفير ..

ان العالم الانسانى كلمــة غير مفهومة عند من يدين برب غــير رب العالمين ، وان قيم الأخــلاق كيل جزاف حين تنقطع الأسباب بين الحسنات والسيئات وبين الثواب والعقاب ، وان « الانسانية » الجامعة شيء لا وجود له قبل أن يوجد « الانسان المسئول »

وانما توجد « الانسانية الواحدة » ويتساوى الانســان والانسان مع الاله الواحد الأحد ، رب الناس ورب العالمين أجمعين ، أفضلهم عنده أتقاهم وأصلحهم وأسبقهم الى الخيرات

وما التقوى ؟ ..

التقوى كلمة واحدة تجمع كل وازع يزع الضمير ..

وأقدر النــاس على أمانة التقوى ، أقدرهم عـلى النهــوض بالتبعة ، وأعرفهم بمواضع المعروف والمنكر والمباح والمحظور

والانسان التقى مرة أخرى هو الانسان « الانسان »

ما هذه التقوى التى يتعلق بها كل فضل الانسان عند رب العالمين ؟

لو شاء فلاسفة الأخلاق لعلموا ماهى هذه التقوى ، وعلموا حقا ان

موازينهم جميعا لا تحسن الترجيح بين فضل وفضل وبين قدرة وقدرة كما تحسنه هذه « التقوى » التى يحسبونها « تسبيحة » من تسابيح المعابد ، ويخيل اليهم أنها أفضل من أن تنفع العالم المحقق فى مقام الموازنة والتفضيل .. فليس بين فاضل ومفضول قط من رجحان غير رجحان الأفضل فى القدرة على التبعة ، بما طاب لهم من ألوان التبعات

هى موضع الرجحان للعالم على الجاهل ، وللرشيد على القاصر ، وللذكى على الغبى ، وللقادر على العاجز ، وللمهذب على القدم ، وللمجدود على المحروم ، وللغنى على الفقير ، وللسيد على العبد ، وللحاكم على المحكوم ، ولصاحب الخلق المكين على صاحب الخلق الهزيل ، ولكل فاضل — بالايجاز — على كل مفضول

وما من ميزان ينفع فلاسفة الأخلاق فى طائفة من هذه الخصال ، الا خذلهم فى طائفة غيرها .. بل فى أكثرها وأحوجها الى الموازنة والتفضيل

فليست « جملة » الانسان ماثلة فى تفضيل العلماء على الجهلاء أو الراشدين على القصر ، أو الأذكياء على الأغبياء ، أو غير هؤلاء على غير هؤلاء من الفاضلين على المفضولين . فان العالم يفضل الجاهل بالعلم ولا مراء .. ولكنه قد يؤب مفضولا عند المقابلة بينهما فى باب من أبواب الخبرة أو نزعة من نزعات الفطرة ، وهكذا كل راجح وكل مرجوح بميزان المال أو النسب أو الخلائق والعادات ، ولكننا اذا حكمنا بأن انسانا يفضل انسانا بالقدرة على التبعات ، فهو الراجح لا مراء فى كل ميزان من موازين المفاضلة بين بنى الانسان ، وكل قيمة تحسب للانسان فهى داخلة فى هذا الحساب ، فان جاز أن تهمل ويبقى الانسان بعدها أهلا للرجحان بالتبعات فهى مهملة حقا ولو كان لها شأنها فى غير هذا الانسان ..

* * *

« ان أكرمكم عند الله أتقاكم »

* * *

صدق الله العظيم ·· انه لهو القسطاس الذى ينشىء « للانسانية » حقوق المساواة بين أبنائها دينا وعلما وفلسفة وشريعة والهاما من الوحى الالهى وتمحيصا من البديهة الانسانية

ومكان الوحى الالهى فى هذه المساواة انها قد شرعت للانسان شريعتها حقا من حقوق الخلق والتكوين ، ولم تشرعها له وسيلة من وسائل الحكم واجراء من « اجراءات » السياسة فى ابان الخطر المطبق ، خيفة من ثورة النفوس وتنافسا على عدد الأصوات فى معارك الانتخاب ·· فان أحدا ممن خولهم القرآن تلك المساواة لم يطلبها ، ولم يكن لينالها قبل أن تنزل عليه من وحى رب العالمين · ولكنها لم تنشأ فى حضارة من حضـارات العالم القديم أو الحديث الا كان وراءها حيلة أو وسـيلة سياسية أو مراوغة تمليق وتسكين ، ولولا حروب أثينا واسبارطة ، وحروب رومة وفارس ، وحروب الأمم فى القرن العشرين ، لما سـمع « ديموس » بشىء يسـمى الديموقراطية ولا رضخ « الديموقراطيون » المتأخرون بشىء لذوى المعاول والمنـاجل أو لذوى الألوان المجندين للمصـانع والمعسكرات · ولا سـمع العالم بمساواة بين بنى آدم لا فضل فيها لأحد منهم على أحد بغير العمل الصالح وتقوى الله

آدم

قصة آدم عليه السلام فى القرآن هى قصة الانسان الأول ..

خلق من تراب .. وارتقى بالخلق السوى الى منزلة العقل والارادة .

وتعلم من الأسماء فضلا من العلم ميزه على خلائق الأرض ، من ذى حياة وغير ذى حياة ..

وقضى له أن يكسب فضله بجهده ، وأن يكون جهده غلبة لارادته وانتصارا لعقله على جسده ..

وقصة هذه النشأة الآدمية يستوفيها القرآن فى هذه الآيات :

* * *

« ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين »

« سورة المؤمنون

« ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه »

« سورة السجدة »

« واذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حماء مسنون فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون . الا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين »

« سورة الحجر »

« واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال :

انى أعلم ما لا تعلمون • وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين • قالوا : سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم • قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم انى اعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون • واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين • وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين • فأزلهما الشيطان عنها فاخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين • فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم • قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون •• »

« سورة البقرة »

* * *

هذه قصة « نشأة آدم » فى القرآن ••

وهى احدى قصص الخلق والتكوين ، وفى هذه القصص جميعا من أمر الغيب ما هو حق الايمان ، وفيها من أمر الحياة الانسانية ما يسعه خطاب العقل ، ويتقبله بعلم منه ، يوافق الايمان ، وهو العلم بقيم الحياة أو العلم « بالقيم » العليا فى حياة الانسان وسائر الأحياء

ولباب القيم جميعا ان الفضيلة العليا ارادة وتجربة ، وليست منحة يبطل فيها التصرف ويمتنع فيها التمييز ••

فاذا جردنا من عالم التصور مخلوقا يعقل ، ولكنه يحسن ويعجز عن الاساءة لأنه مصروف عنها ، ومخلوقا تأتى منه الحسنة كما تأتى منه السيئة لأنه لا يميز بينهما ولا يريدهما ، ومخلوقا تكلفه الحسنة جهدا ويريدها لأنه يعرف فضلها ويصبر على المشقة فى سبيلها ، فنحن قد ذهبنا بالتصور غاية مذهبه لنقف عند قصة آدم والملائكة وما فى الأرض والسماء من خليقة ذات حياة أو غير ذات حياة ••

وعلينا أن نمعن بالتصور مدى آخر ، وراء هذا المدى من تاريخ الانسان ، وذلك هو المدى الذى نطلع منه على « سياسة الخلق والتكوين » على كل صورة من الصور مرة أخرى فى احتمال العقل ، أو فى احتمال الفرض والتقدير

اننا نعلم من سياسة الخلق ان الأجسام الحية نشأت على الكرة الأرضية قبل نشأة الانسان ، فكادت أن تبلغ مبلغ الجبال الصغار وثقل بعضها وزنا حتى أربى على مئات الأطنان ، ثم فنيت لأنها قصرت عن ملكة التدبير التى تروض بها هذه الأجسام الضخام · ولسنا نعلم شيئا بغير السماع والالهام عن خلائق العقل التى تفردت فيها العقول عن الأبدان ··

والعقل الانسانى يأبى أن يصدق ان هذا الكون خلو من معدن العقل الا أن ينبت عرضا فى جزء من مادة الأرض ، بعد نشوء الانسان

أقرب الى تصديقه — ولا نقول أقرب الى ايمانه وكفى — أن سياسة الخلق والتكوين تصرفت فى مقادير العقول ، كما تصرفت فى مقادير الأبدان الى غاية ما تبلغه من الضخامة بمعزل عن العقل وعن فضائل التمييز ··

تلك سياسة الخلق التى أذنت للكائنات العاقلة فى عالم الروح أن تعلم مداها من الرقى فى معارج الحياة ، وأن تتلقى الأمر بالسجود للقيمة الجديدة التى تنفرج عنها أستار الغيب ، ويودعها الخالق هذا الكيان الموسوم بالانسان ··

ومن بديهة الايمان أن تدع للدين حقه فى تبليغ هذه النشأة الى المؤمنين بالغيب ، وأن تدع للعقول حقها فيما وسعت من علم ، وفيما وسعها من تعليم ·· ان النشأة الآدمية فى القرآن هى طريق الحياة من الأرض الى السماء ، أو هى طريق الكائن الحى من المادة الصماء الى الخلاق الحكيم

ولا يأبى القرآن على مؤمن به أن يترسم مسلك الحياة من المبدأ الى المصير على هذا الطريق الخفى البين ، فانه لعلى الجادة فى كل مكان يردها الى الأرض ولا يقطعها عن الله



الإنســـــان
فى مذاهب العلم والفكر



عمر الإنسان

نبدأ هذه الفصول عن الانسان فى مذاهب العلم والفكر بفصل عام عن عمر الانسان فى هذا العالم ، لأن تقدير الزمن الذى مضى على ابتداء حياة النوع الانسانى مرتبط بكل بحث عن أصل الانسان فى جميع المذاهب ، ولا سيما مذهب النشوء أو التطور ، وهو أول مذهب يتعين البحث فيه واستقراء ما يقال عنه ، تأييدا وتفنيدا ، فى تقرير مكان الانسان من هذا الوجود ومكانه بعد ذلك من عامة الأحياء

ونرى ان هذا المذهب أول المذاهب التى يتعين بحثها هنا ، لأنه أحرى أن يسمى « مذهب مذاهب » وأن يدرس على سعة تخرجه من حدود المذهب الواحد الذى يقصر على موضوعه الأصيل ، فانه ما كاد يظهر وينتشر بين أصحاب الدراسات حتى عاد هؤلاء يحسبون أنهم مطالبون باعادة النظر فى موضوعاتهم للمقابلة بين قواعدها ومقرراتها قبل انتشار مذهب التطور وبعده ٠٠ فكتبوا عن تطور العلم وتطور الفن وتطور الأدب وتطور السياسة وعن أبواب شتى من الدراسات ، يقال فيها اليوم غير ما قيل بالأمس تبعا للقوانين أو النظريات التى جاء بها النشوئيون ٠٠

وسنبسط القول فى هذا المذهب على وجه خاص على قدر المستطاع فى حيز هذه الرسالة ، لأنه — على كل فرض من الفروض — دعوى فى قضية الانسان يستمع اليها ولا تهمل كل الاهمال ، ولو اعتقد الناظر فيها — كما نعتقد — أنها تقوم على آراء لا تلزم منها النتيجة التى وصل اليها النشوئيون لزوم الحتم ، ولكنها معلقة الى حين ٠ ولنبدأ بالكلام فيما يلى عن عمر الانسان بتقدير العلوم العصرية ، ولا تناقض بين شىء منه وبين شىء مما ورد فى آيات القرآن

لم يوجب القرآن على المسلم مقدارا محدودا من السنين لخلق الكون

أو لخلق الانسان ، ولا نعلم ان ديانة من الديانات الكبرى التى يؤمن بها أبناء الحضارة عرضت لتاريخ الخليقة غير الديانتين البرهمية واليهودية

والديانة البرهمية لا تقدر عمر الكون ، أو عمر الحياة ، بمقدار محدود من السنين ، لأنها تقول بالدورة الأبدية التى تتكرر فيها حياة الانسان مع حياة الكون بغير أجل معروف فى البداية أو النهاية · وعند البرهميين أن الكون فلك كبير ، يتم دورته المتكررة مرة فى كل ثلثمائة وستين ألف سنة · وقد يزاد هذا القدر أو ينقص فى تفسيراتهم الدينية على حسب المقادير المضاعفة عندهم للدورة الشمسية ، وهى عندهم مثل صغير للدورة الكونية الكبرى · وكلما انتهت دورة بدأت أخرى من دورات الوجود السرمدى عودا على بدء الى غير انتهاء

أما المصادر اليهودية ، فهى على حسب تحقيق الفقيه الكبير « جيمس يوشر » المتوفى سنة ١٩٥٦ ، تدل على ابتداء الخليقة فى شهر أكتوبر سنة ٤٠٠٤ قبلا الميلاد · وقد شرح أسانيده التى بنى عليها هذا التقدير فى كتاب ضخم سماه السجلات القديمة والعهد الجديد
Annales Veteris et Novi Testamenti

وأضيف هذا التاريخ الى نسخة التوراة التى ترجمت على عهد الملك « جيمس » ، وبهامشها تواريخ الحوادث المذكورة فى متونها

وظل هذا التاريخ معتمدا فى طبعات التوراة المنقولة عن هذه النسخة الى العهد الأخير ·· ثم أجمع شراح الكتاب العصريون ، يهود ومسيحيون على تقدير السنين والأيام التى وردت فى صدد الكلام عن الخليقة بمقادير غير مقادير السنين والأيام الشمسية ، واستندوا الى أن اليوم الشمسى وان السنة الشمسية تساوى مدة دوران الأرض حول الشمس مرة واحدة ، فلا يمكن أن يكون اليوم من أيام الخليقة الستة يوما شمسيا لأن الشمس نفسها خلقت فى اليوم الرابع كما جاء فى الاصحاح الأول من سفر التكوين ··

« وقال الله : لتكن أنوار فى جلد السماء لتفصل بين النهار والليل

وتـــكون آيات وأوقات وأيام وســـنين ، وتكون أنوارا فى جلد الســـماء لتنير على الأرض • وكان كذلك • فعمــل الله النورين العظيمين : النور الأكبر لحــكم النهار ، والنور الأصغر لحــكم الليل ، والنجوم وجعلهــا الله فى جلد السماء لتنير على الأرض ولتحكم على النهار والليل ولتفصل بين النور والظلمــة • ورأى الله ذلك أنه حسن • وكان مساء وكان صــباح يوما رابعا »

* * *

وانقضى القرن السابع عشر والثامن عشر دون أن يعرض لعلماء الغرب ، من مباحث الدين أو العلم ، شىء يدعوهم الى تقدير عمر للخليقة يزيد على ستين قرنا بحساب السنين الشمسية ، ثم تتابعت الكشوف عن ظواهر الطبيعة كيفما تناولتها العلوم الحديثة ، فتضاءلت هذه القرون الستون حتى أصبحت كلمحــة البصر الخاطفة بالقياس الى أعمار الكائنات الســماوية والأرضية ، بعد أن عرف العلماء حساب الزمن بالسنة الضوئية وتحققوا من النظر اليقين الى بعض الكواكب انهم يرونهــا الآن بعد أن مضت على انطلاق الشــعاع منها ملايين من السنوات الشــمسية ، وتبين من تحقيق أعمار بعض الأشجار أنها نبتت قبل ميلاد السيد المسيح وقبل دعوة موسى الكليم وابراهيم الخليل ، وتبين من بقايا النبات المتحجر أنه كان ينمو على الأرض قبل مئات الآلاف من الســنين ، وقامت تقديرات العلم فى قياس أعمار هذه الكائنات على معايير محققه لا تقل ثبوتا عن قياس الســاعات بحركة الرمل أو الماء فى الســاعات الرملية والمائية ، لأنهم يبنون هــذه التقديرات على المعلوم المحقق من سرعة الاشــعاع المعدنى أو مدى الوقت اللازم لتحــول العناصر ، وأمثال ذلك من المعــايير التى تصــلح للقياس عليها كما يصلح العلم بمقدار الرمل أو الماء ومقدار الوقت اللازم لانصبابه فى صندوقه قياسا لساعات النهار والليل ، وكما يصلح العــلم بحركات الكواكب قياسا للسنين والشهور

وقد اشتركت العلوم جميعا فى اتخاذ مقاييسها لتقدير أعمار الكائنات ، فقاس النباتى عمر الشجرة بحلقات جذوعها ، وقاس الطبيعى أعمار البحار

بمقادير الملح الذى أفرغته الأنهار فيها ، وقاس عالم الطبقات الأرضية أعمار الصخور بتحول المعادن أو استقرار الرواسب ، أو باشعاع العناصر أو بالأحافير المتحجرة من بقايا النبات والحيوان ، وكلها معايير معقولة توغل بأعمار بعض الكائنات رجوعا الى دهور محسوبة بمئات الألوف من السنين ، وتمعن أحيانا فى القدم حتى تحسب بمئات الملايين.

* * *

وأحدث المقاييس العلمية التى تقاس بها عصور ما قبل التاريخ مقياس الكربون المسمى بكربون (١٤) تمييزا له من الكربون (١٢) المسمى بمقدار وزنه الذرى .. فان العالم الأمريكى « ويلاردليبى » Wilard Libby صاحب الدراسات المأثورة فى الطبيعيات الذرية ، وجد ــ قبيل منتصف القرن ــ ان نصف ذرات هذا الكربون تتحلل فى الأجسام الحية خلال خمسة آلاف وخمسمائة وثمان وستين سنة ، يعمل فيها حساب فرق التقدير بنحو ثلاثين سنة الى الزيادة أو النقصان ، فاذا جمعت بقايا العظام أو الفحم الحجرى ، فمن الممكن وزن ما فيها من كربون (١٤) وتقدير الزمن الذى انقضت فيه حياة الكائن الحى الذى تخلفت عنه تلك البقايا على حسب المقدار المتحلل من ذلك الكربون . فاذا كان هذا المقدار نصفا ، فقد مات ذلك الكائن الحى قبل خمسة آلاف وخمسمائة وثمان وستين سنة ، واذا كان ذلك المقدار ربعا فقد انتهت حياته قبل نحو أحد عشر ألف ومائة وست وثلاثين سنة ، ويزيد عدد القرون كلما نقصت نسبة البقية الباقية من الكربون (١٤) بالمقابلة بينه وبين الكربون (١٢) مع ذلك الفارق القليل الذى يحسب فيه الحساب لخطأ التقدير ..

وبهذه المقاييس الكثيرة التى تضبط حساب القرون كما يضبط حساب الأيام والليالى بالساعات الرملية والمائية ــ قفل تاريخ الانسان على الأرض راجعا الى ألوف القرون بدلا من العشرات أو الآحاد ، ووضع علماء الطبقات والحفائر مقادير الأعمار المتطاولة لكل طبقة من الطبقات الأرضية وجدت فيها بقايا الأجسام البشرية ، وقدروا للطبقة الحجرية ثلاثة

أدوار بين عليا ووسطى وسفلى ، يتراوح تاريخها بين خمسة وسبعين ألف سنة وستمائة ألف سنة ، وتنسب الى الطبقة العليا بقايا الانسان التى وجدت فى الاقاليم الغربية من القارة الأوربية ، والى الطبقة الوسطى بقايا الانسان التى وجدت فى أواسط القارة ، وأقدم من هذا بقايا الانسان التى وجدت فى القارة الآسيوية بين الصين وبلاد الملايا ، ومثلها فى القدم أو أقدم منها بقايا الانسان فى أقاليم الجنوب الافريقية

وآخر البقايا الانسانية التى وجدت فى القارة الافريقية جمجمة ، وجدها الدكتور « ليكى » Leakey – فى شهر يوليو سنة ١٩٥٩ – ووجد معها بقايا حيوانات يظن الدكتور أن صاحب الجمجمة كان يصطادها لطعامه ، ويستخدم فى صيدها أسلحة حجرية وجدت آثارها على مقربة منه ، وقد استقرت هذه الحفائر تحت مجرى » أولدفاى « بتنجانيقا وسمى هذا الانسان باسم علمى معناه الانسان الزنجى Zinjanthropus ولقبوه فى الدوائر العلمية بلقب « كاسر الجوز » لضخامة فكه وضروسه ، ويقدرون تاريخه بنحو ستمائة ألف سنة على حسب قياس الزمن بتلك المقاييس المتعددة ، ومنها حساب زمن التحجر وزمن تكوين الطبقة وزمن التطور فى تركيب العظام وزمن البقايا التى تخلفت من عظام الفك والأسنان

وليس من المحقق أن يوغل التاريخ فى القدم الى كل تلك الالوف من السنين ، ولكن المحقق أن ايغالها الى تلك الدهور كلها أو ما هو أقدم منها ليس بالأمر المستغرب فى أقيسة الزمن أو أقيسة أعمار الحياة الانسانية ، بعد وضوح الحقائق الثابتة عن قدم تاريخ الخليقة من ظواهرها الأرضية وظواهرها السماوية على السواء

والمحقق كذلك أن الانسان القديم الذى دلت عليه تلك البقايا ، كان يستخدم الآلات الحجرية ، ويستعين فى كفاح أعدائه من الحيوانات الضاربة بنصيب من الذكاء لم يكن معهودا فى حيوان منها ، فهو فى أقدم عهوده مميز بالعقل والنطق وهما صفتان انسانيتان لا تنفصلان عن استخدام الآلة ولا عن الخاصة المميزة للحيوان الناطق من اعتدال القامة ومطاوعة اليد للارادة فى حالات المشى والوقوف ، ولولا ذلك لما استطاع

الانسان أن يستخدم السلاح وأن يصنعه لاصابة الحيوانات الضارية من بعيد ..

* * *

أما الانسان فى مجتمعات الحضارة فلم ينكشف ، بعد ، أثر يدل على تاريخ له قبل عشرة آلاف سنة أو نحوها ، ونعنى بانسان الحضارة ذلك الانســان الذى عرف الشريعة ونظام المعــاملة وسخر الحيوان كما سخر العناصر الطبيعية فى مصالحه المشتركة . وقد وجدت فى وادى النيل آثار الانسان المقيم الذى كان يستخدم الأدوات الحجرية ، ويعول على محاصيل الأرض فى تدبير طعــامه وأسباب معيشــته ، ولكن المتفق عليه أن هــذا الانسان لم يكن يعرف الكتابة ولم تكن نقوشه على الحجر من قبيل الرموز المصطلح عليها لنقل الأفكار وتسجيل الوقائع ، ولكنها أقرب الى الطلاسم السحرية أو الى أشكال الزينة ، وانها — على هذا — لتعتبر مقدمة لازمة نشأة المزايا التى تحقق الصلاح وتكفل لصاحبها الدوام فى ميدان تنازع

* * *

وليس لنا أن نأخذ مأخذ اليقين بروايات الأقدمين عن ماضيهم البعيد فى حياة الثقافة والحضارة الرفيعة ، ولكنها روايات لا تهمل فى صدد الكلام عن تاريخ الانسان ، وليس لنا كذلك أن ننقضها بغير دليل

كان هيرودوت — الملقب بأبى التاريخ — يعيش فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وهو يروى فى كتابه الثانى عن كهنة الفراعنة انهم يقدرون تاريخ الدولة من عهد ملكها الأول بثلثمائة وواحد وأربعين جيلا ، أى بنحو أحد عشر ألف سنة على حساب ثلاثة أجيال لكل قرن واحد ، ويعتقــد بعض الباحثين المحدثين أنه تقدير غير مبالغ فيه ، وأن مواقع بعض الهياكل تدل على انقضاء زمن كهذا الزمن قبل عصر هيرودوت فى مراقبة فلكية سمحت بملاحظة الفرق بين السنة الشمسية فى التقويم القديم وهذه السنة الشمسية فى تقويمنا الحديث ، وهو فرق يبلغ سنة كاملة كل ألف وأربعمائة واحدى وستين سنة ، ولا سبيل الى ادراك هــذا الفرق فى أمة تجهــل الرصــد

والتسجيل وتعجز عن مراقبة هذه الفروق دورا بعد دور فى تاريخها الطويل (١)

* * *

ومما يذكر ، ولا يهمل ، فى صدد الروايات المتواترة عن الأمم الدارسة رواية أفلاطون عن القارة المفقودة التى سماها القارة الأطلسية ، وذكرها فى كتابين من كتبه المحفوظة هما كتاب « تيماوس » Timaeus و « كريتاس » Critis وروى من أخبار أهلها أنهم تقدموا فى الحضارة تقدما لم يدركه أحد من بعدهم ، ثم غاصت بأهلها تحت الأرض على أثر زلزال من زلازل العصور الغابرة التى يظهر من أخبار الأقدمين أنهم كانوا يحسبونها من عوارض الطبيعة الدائمة أو عوارضها الدورية . وقد بحث طلاب الأسرار فى مجاهل الماضى المدثور عن موقع القارة المفقودة فرجح عندهم أنها كانت فى موضع المحيط الأطلسى بين شماله ووسطه ، وأنها زالت فى احدى الكوارث الكونية التى قدروا لوقوعها سنة ٩٥٦٤ قبل الميلاد فلم يبق منها الا بعض الجزر البركانية

وقد كان أفلاطون أحد رواة هذه الأسطورة ، فلقيت من عناية الاخلاف اللاحقة ما لم تلقه أساطير عصره ، وجاء فرنسيس باكون فيلسوف العلوم التجريبية بعد القرون الوسطى فسمى أحد كتبه باسم الأطلسية الجديدة ، ووصف فيه العالم الجديد كما يتمناه

الا أن الغالب على المحدثين أن يتبعوا فى هذه الرواية منهجهم « التقليدى » فى كل رواية ، تخلفت من العصور الأولى وانتقلت الى العصور الأخيرة مع أساطير الأقدمين ، فحسبوها جملة واحدة فى عداد تلك الأساطير ، وهو منهج كانت له مسوغاته القوية فى مرحلة الانتقال بين ظلمات القرون الوسطى ومطالع الكشف والتحقيق عند أوائل القرن التاسع عشر ، ولكن استقرار عصر الكشف والتجربة العلمية خليق أن يوطد الاقدام على بر الأمان ، ويسمح للباحث بالتردد فى الانكار كما سمح له من قبل بالتردد

---

(١) يرجع الى كتاب فيلوكفسكى Velikovsky عن العوالم المتصادمة

فى القبول ، بل بالتعجل الى الرفض بغير حجة ولا موازنة بين مسوغات التكذيب ومسوغات التصديق ، ولعل الكشوف الكثيرة التى تعاقبت خلال القرن التاسع عشر وتبين منها أن روايات الأقدمين لم تكن كلها من قبيل الأساطير قد أقنعت أكثر الباحثين بأن الرفض بغير برهان أضر بالبحث من القبول بغير برهان ، لأن الذى يجزم برفض خبر قديم انما يحكم بالاستحالة على الممكنات الكثيرة التى تجوز ولا تمتنع فى العقول ، وخير منه ــ عقلا ــ من يقبل شيئا ممكنا ، وان لم يقم البرهان على وقوعه فعلا كما وقع غيره من الممكنات

واذا حق لهذه « الأسطورة » أن تشفع لها رواية أفلاطون ، فقد يكون من شفاعاتها الحديثة التى تزكى تلك الشفاعة الموقرة أن المحيط الأطلسى ينبىء الباحثين المحدثين عن صدوع واسعة يدل عليها تقابل الخطوط بين شواطئه الشرقية وشواطئه الغربية ، وقد تدل عليها أغوار القاع وسلاسل المواقع المنهارة على امتداده طولا وعرضا بازاء قارات العالم القديم والعالم الجديد ، وهذه كلها كشوف متأخرة لم يعرف عنها الأقدمون شيئا حين تناقلوا أخبارهم عن قارتهم المفقودة

على أن الكشوف الأثرية فى السنوات الأخيرة قد خرجت بأساطير القارات المفقودة من عالم الاسرار الى عالم الآثار وطالعتنا باسم قارة جديدة فى محيط آخر غير المحيط الاطلسى ، ولكنه يقابله فى الموقع ويشبهه فى الظواهر والأغوار ، وتلك هى قارة « مو » Mu التى ألف عنها الكولونيل جيمس شرشوارد Churchivard كتابيه باسم « قارة مو المفقودة » و « أبناء مو » وروى فيهما أخبار حضارات سابقة لعصور التاريخ يرجع بها قدما الى أكثر من عشرين ألف سنة قبل الميلاد ، ويعزز دعواه برموز واشارات يفسرها بمعانيها اللغوية ، ولا يقنع باعتبارها من أشكال الزينة ونقوش البناء ، لأنه يرى أن الرسوم الهندسية لا تبلغ هذا المبلغ عند أمة تجهل الكتابة ونقل الأفكار بالعلامات والخطوط

* * *

وعلى عهدة المؤلف ننقل خلاصة كتابه عن القارة المفقودة مقتبسة من مقدمته لكتابه الآخر عن « أبناء مو » وفيها يقول ما فحواه :

« ان قارة « مو » كانت قارة واسعة تقع فى المحيط الهادى بين أمريكا وآسيا ، ويقع وسطها الى الجنوب قليلا من خط الاستواء ٠٠ ويقدر طولها من الشرق الى الغرب بستة آلاف ميل ، وعرضها بين الشمال والجنوب بثلاثة آلاف ميل ، وقد دهمها زلزال عنيف قبل نحو اثنى عشر ألف سنة ، فابتلعتها لجج المحيط وغاص معها الى قراره نحو ستين مليون انسان ، ويستدل على وجود تلك القارة بالآثار الكتابية والروايات المتوارثة التى يتداولها أناس من أبناء الهند والصين وبورمة والتبت وكمبوديا وأواسط أمريكا ، ومنها نقوش ورقوم شوهدت فى جزر المحيط الهادى ، تؤيدها روايات الاغريق والمصريين الأقدمين وتتواتر حولها الأساطير بين بقاع الدنيا المترامية على أرجاء الكرة الأرضية ٠ وقد خطا الانسان خطواته الأولى فى سبل التقدم والمعرفة قبل نحو مائتى ألف سنة ، وانتهى قبل نكبة القارة بالزلزال الى شأو من الحضارة لم نصل اليه حتى الآن فى حضارتنا الراهنة ، لأن حضارتنا لا تدعى لها عمرا أطول من خمسة آلاف سنة وهى مرحلة قصيرة بالقياس الى الشأو الذى يدركه الانسان العاقل بعد ممارسة الحضارة والصناعة مائتى ألف سنة ، وليست حضارات الأمم الشرقية العريقة من الهند الى بابل ومصر الا ومضات الرماد المتخلف من حضارة تلك القارة الغريقة ، وقد فسر المؤلف ما عثر عليه من الرموز والرقوم واعتمد فى بعض تفسيراته على كهان المحاريب البرهمية وعلى حلول الطلاسم التى انتهى اليها قراء الكتابات القديمة على آثار المغرب والمشرق ، ومنها آثار المايا وآثار الفراعنة ٠٠ ويقول المؤلف انه لم يأت برأى من عنده فى كل ما بسط القول فيه من أخبار تلك القارة ، ولكنه رأى ما يراه كل قارىء لتلك النقوش والرقوم يتقبل طريقة حلها كما شرحها مشفوعة بأسانيدها وبالأدلة التى تؤكد معانيها ، وقد ثبت له من تلك الأدلة أن بعضها يمتد فى الازمنة الماضية الى سبعين ألف سنة ، ولكن الآثار التى نقلت من قارة « مو » نفسها جد قليلة ، وغاية ما أمكن العثور عليه من الآثار المتصلة بها أثران رمزيان مصنوعان من البرنز ، يرجع

تاريخهما على الأقل الى نحو عشرين ألف سنة اذا كانا من مخلفات الحضارة التى بقيت على أرض القارة الآسيوية بعد الزلزال وقبل الطوفان ، وقد يرجع الى آماد أبعد من ذلك جدا اذا كانا من مخلفات « مو » التى نقلت الى بلاد القارة الآسيوية ٠٠ »

* * *

والجديد فى قصة هذه القارة كما رواها مؤلف كتابى القارة المفقودة وأبناء « مو » ، انها تحدثنا عن الانسان « المتدين » فى تلك العصور السحيقة ، وأنها تصف لنا هذا الانسان « مخلوقا » مميزا بين جميع المخلوقات ، وتربط بين خاصة التدين وبين هذه المزية التى تفرده بين أنواع الأحياء ، على خلاف المفهوم من مذاهب النشوئيين الذين جعلوا الانسان نوعا من هذه الأنواع بغير مزية تفصله عنها سوى مزية الارتقاء ، وقد ألم المؤلف بمشابهات عارضة بين مجمل الكلام عن الخليقة ، وعن نكبات الانسان فى العصور الغابرة ، كما جاءت فى الآثار الأولى وفى كتب الأديان الباقية ، وغاية من ما نقوله عن توكيدات المؤلف وتخميناته معا ان مسألة الانسان المتحضر قبل عصور التاريخ ليست مما يهمل فى سياق يعرض لتاريخ النوع الانسانى ولمكان الانسان من كتب الدين

الإنسان ومذهب التطور

القائلون بالتطور فرقتان : منهم من يعمم تطبيقه على الكون كله بما اشتمل عليه من مادة وقوة ، ومنهم من يقصره على عالم الكائنات العضوية التى تشتمل على النبات والحيوان والانسان ، ولا تحيط بما عداها من الموجودات غير العضوية ..

والقائلون بالتطور العام يواجهون مسألة الخلق ، أو مسألة الايمان بالخالق ، فى كلامهم عن العالم وعن القوى المسيرة له من خارجه أو داخله ، ولا مناص لهم من التعرض لهذه القوى برأى من الآراء ..

فالذين يقصرون التطور على الاحياء ، يرجعون فى تعليل تطورها الى عوامل الطبيعة وما تشمله من مؤثرات البيئة والمناخ وموارد الغذاء ووسائل الحصول عليه ، ولا يضطرهم القول بهذا التطور الى التعرض لما وراء هذه العوامل الطبيعية باثبات أو انكار .. فقد تكون عوامل الطبيعة فى مذهبهم خاضعة لقوة عالية فوق الطبيعة ، تودعها ما تشاء من النظم والنواميس ، ولا يتناقض القول بالنظم الطبيعية عندهم والقول بما وراء الطبيعة ، على حسب العقائد الدينية أو المذاهب الفلسفية

أما تعميم التطور على الكون كله ، فلا بد أن يسبقه السؤال عن القوة التى تملك تسيير هذا الكون منذ الأزل الى غير نهاية ، ولا بد للقائل بتعميم التطور من الفصل فى مسألة البداية والنهاية .. وهى لا تنفصل عن مسألة الخلق والخالق فى جملتها

فاذا كان تطور الأحياء يرجع الى عوامل البيئة الطبيعية ، فماذا خارج الكون كله يرجع اليه تطور الكون منذ البداية الأولى ؟ وكيف يتفق القول بالتطور والقول بالأبدية التى لا أول لها ولا آخر اذا قيل ان الكون موجود بلا ابتداء ولا ختام ؟

ان أشهر القائلين بالتطور العام هربرت سبنسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣)، الذى عرف التطور بأنه انتقال من البسيط الى المركب ، وقال عن تطور الحياة أنه توفيق دائم بين مطالب البنية الحية وبين ظروفها الطبيعية ، ولهذا يحدث التغير للبنية ثم يحدث لها التوسع والامتداد ، وتترقى فى وظائفها تبعا لاتساعها وامتدادها ..

وقد عرضت له قضية البداية الأولى ، فلم يدخلها فى حدود الطبيعة ولم يخرجها من حدودها .. ولكنه قسم الحقائق الكونية الى قسمين بالنسبة الى المعرفة الانسانية : أحدهما حقائق الأشياء فى ذواتها وفى أصولها الأولى وهى القسم الذى لا يدرك ولا يتقبل الادراك بالأساليب العلمية ، والآخر حقائق الأشياء فى ظواهرها المحدودة وهى التى يستطيع عقل الانسان أن يدركها بالاستقراء والاستدلال ، ويظهر فيها عمل التطور اما باستخراج الأحكام العامة من المشاهدات المتفرقة ، أو بتفسير هذه المشاهدات على حسب تلك الأحكام

وأصحاب هذا الرأى من القائلين بالتطور العام - على ترددهم فى مسألة الأصول الأولى - لا يتجاهلون هذه الأصول ، ولا يفوتهم أن القول بالتطور العام يوجب عليهم أن يرجعوا الى المؤثرات الكونية التى تصدر منها الآثار المتغيرة وتفسر لنا أسبابها ، وان اطلاق القول بالتطور من مبدأ الكون غير تخصيص التطور بالكائنات العضوية وتفسيره بالرجوع الى العوامل التى تحيط بتلك الكائنات وتفعل فعلها أو تنفعل معها بمشاركتها ، ولكن أصحاب التطور العام على مذهب سبنسر يسلمون بتلك المؤثرات الكونية ويتركون البحث فيها عجزا عن الوصول الى النتيجة ، فيقفون بالمعرفة الانسانية عند الآثار التى يدركونها ويحجمون عما وراء ذلك ، فيسلكونه فى عداد « المجهولات » التى لا تدرك بالحواس والعقول ..

ويبقى أصحاب التطور العام الذين لا يذهبون مذهب سبنسر فى تقسيم المعرفة الانسانية بين مدرك وغير قابل للادراك ، وهو قبل ذلك مذهب الفيلسوف الايقوسى هاملتون (١٧٨٨ - ١٨٥٦) ومذهب الفيلسوف

الألمانى عمانويل كانت (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) فى الظواهر والحقائق أو فى الأشياء كما تحس وتدرك ، والأشياء فى ذواتها ٠٠

فأصحاب التطور هؤلاء فريقان ، يقفان من مسألة الأصول الأولى موقفين متقابلين متناقضين ٠٠ وتفسير هذه الأصول عند أحدهما ـ وهو فريق المؤمنين ـ أنها من صنع الخالق الحكيم ، وان القوة التى تصدر عنها آثار التطور فى الكون كله منذ بدايته لابد أن تكون « قدرة » فوق الطبيعة وفوق الكون تودعه ما تشاء من النظم والنواميس

والفريق الآخر ـ وهو فريق الماديين المنكرين ـ يكتفى من التفسير بذكر العوامل التى ينسب اليها التأثير واعتبارها طبيعة فى المادة لا تفسير لها الا أنهـا وجدت هكذا ، ولا يمكن أن توجد على صورة أخرى غير التى وجدت عليها

فاذا احتاج الفيلسوف المادى الى القول بالحركة الدائمة ، قال انها عادة المادة فى أصل تكوينها ، واذا لزمه القول بالتغير مع الحركة قال ان المادة المتحركة متغيرة بطبيعتها ، واذا لزمه بعـد ذلك أن يجعلهـا متغيرة من البساطة الى التركيب ومن النقيض الى النقيض ٠٠ فهذا القول عنده هو وصف للواقع وتفسير له فى وقت واحد ، وكذلك يفسر التقدم والارتقاء وهما يستلزمان الغاية المرسومة والنتيجة المقصودة ، ولكن الفيلسـوف المادى يحسب أنه فرغ من التفسير بوضع كلمة « الضرورة » هنا موضع كلمة الغاية المقصودة ٠٠ وليس عند الفيلسوف المادى تفسير لهذا التعدد الهائل فى ظواهر الكون وأجزائه ، مع ابتداء تطوره من وقت واحد أو مبدأ واحد ، وجريان هذا التطور على مادة واحدة وقوة واحدة ٠ وليس عنده معنى لهذا التقدم أو غاية يتقدم اليها غير انقضاء أجل الكون مرة بعد مرة ، كلما انقضت دورة من دوراته الأبـدية بين التأخر والتقـدم ، أو بين الهبوط والارتقاء ٠٠

وكل هذه الفلسفة المادية تتلخص فى كلمة تشبه كلمة الطفل حين تسأله عن سبب شىء فيقول لك « هكذا » بغير سبب ، أو تشبه كلمة الجـاهل

الذى تسأله عما وقع أمامه فيقول لك : « وقع وحده » ولا تفهم منه علة لوقوعه أوضح من قول المادى الفيلسوف ان المادة تتغير لأنها متغيرة ، وتتقدم لانها متقدمة ، وتنتقل من البساطة الى التركيب ومن النقيض الى النقيض لأن ذلك كله من طبائعها ٠٠ ولولا أن المادى الفيلسوف يقرر مذهبه فى التطور ليصل منه الى نتيجة فى المستقبل يوجبها على الناس وعلى الزمن لتساوى تفسيره للتطور العام وسكوته عن تفسيره ٠٠ ولكنه لو اختار أن يتنبأ بنتيجة تناقض تلك النتيجة ، واختار أن يفسر ذلك أيضا بأنه طبيعة من طبائع المادة وطور من أطوارها لما كانت حجته فى احدى النبوءتين بأقوى من حجته فى الأخرى

* * *

والقائلون بتطور الكائنات العضوية ، ممن يقصرون القول عليها ولا يعممون تطبيق التطور على جميع الكائنات بمليون — على الأغلب الأعم — الى القصد فى التفسيرات والتعليلات ، ويتجنبون البحث فى الأصول الأولى مكتفين من الأسباب بما يخضع للتجربة ويصلح للتقرير بأساليب العلم الطبيعى الحديث

وخلاصة مذهبهم أن أنواع الاحياء تتحول وتتعدد على حسب العوامل الطبيعية ، وانها ترجع جميعا الى أصل واحد أو أصول قليلة لعلها هى الخلايا البدائية ٠٠

وليس القول بتقارب الأنواع أو بتدرجها ، رأيا حدينا مجهولا قبل ظهور مذهب دارون أو مذاهب النشوئيين العصريين على العموم ، ولكنه رأى قديم قال به فلاسفة اليونان وعرفه مفكرو العرب كما سنبينه فى فصل آخر من فصول هذا الكتاب ، وانما الجديد منه اسناده الى أسباب العلوم الطبيعية التى شاعت بين أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر ، وابتدأ القول به مع ابتداء البحث العلمى على مناهج العلماء المحدثين ٠٠

قال به العالم النباتى السويدى كارل لينوس (١٧٠٧ — ١٧٧٨)

Carl Linaeus الذى عنى بتصنيف الأنواع والاجناس فى دراسته للنباتات وبنى على هذا التصنيف رأيه فى أنواع الاحياء على التعميم

وقد كان لمباحث هذا العالم أثر واسع فى البيئة العلمية الانجليزية . فانشىء المجمع اللينى فى لندن بعد وفاته بعشر سنوات ، نسبة اليه

وقال به بوفون العالم النباتى الفرنسى (١٧٠٧ ـ ١٧٨٨) Buffon الذى ألف كتابه المنفصل عن التاريخ الطبيعى بمعاونة الأستاذ دوبنتون Daubenton وآخرين ، واتخذ من تصنيف أنواع النبات رأيا يماثله فى تصنيف أنواع الحيوان .

وكان من المعاصرين لهذين العالمين اراسموس دارون Erasmus Darwin (١٧٣١ ـ ١٨٠٢) جد دارون الذى ينسب اليه مذهب النشوء والتطور ، فكان رائدا لحفيده فى القول بالتقارب بين الانسان والحيوانات العليا ، وعاش معه فى عصره العالم الفقيه الايقوسى لورد منبودو (١٧١٤ ـ ١٧٩٩) Lord Monboddo صاحب كتاب « أصل اللغة وترقيها » وكتاب ما وراء الطبيعة فى العصور القديمة .. » ومذهبه فى تطور الانسان ظاهر من بحثه عن الأسباب الطبيعية لتطور اللغة ، وعن العلاقة بين الطبيعة وما وراء الطبيعة عند الأقدمين ..

وتبين من المقابلة بين تواريخ ميلاد هؤلاء العلماء ، أن جو العلم الطبيعى فى القارة الأوربية من شمالها الى جنوبها كان قد تهيأ لدراسة الحياة والاحياء على أساس الوحدة فى قوانين الطبيعة ، ولم يكن ذلك مقصورا على السويد وفرنسا وانجلترا ، بل صح من روايات مؤرخى العلوم عند الألمان والروس أن هذه الآراء وجدت من يقول بها على نحو من الأنحاء ، وان كانت روايات هؤلاء المؤرخين لا تخلو من مداخلة الفخر بالسبق العلمى بين الأمم الأوربية

ولكن مذهب النشوء لم يعرف بتفصيله قبل العالم الفرنسى لامارك (١٧٤٤ ـ ١٨٢٩) Lamarck ثم العالمين الانجليزيين : شارل دارون

(١٨٠٩ ــ ١٨٨٢) وزميله الفريد رسل والاس (١٨٢٣ ــ ١٩١٣) وعلى مباحث هؤلاء العلماء الثلاثة يقوم على أساس مذهب النشوء ، أو مذهب التطور ، بشقيه المقدمين فى اعتبار العلماء الى اليوم

وكل من لامارك وداروين ووالاس يقول بتحول الأنواع ، ويرد كثرتها الى نوع واحد أو أنواع قليلة ، ولكنهم لا يتفقون على أسباب التحول ولا على الصفات والوظائف التى تنتقل بالوراثة متى تغيرت فى تكوين الأفراد ..

ففى رأى لامارك ان أعضاء الجسم التى تتغير بالاستعمال أو بالاهمال أو بطارىء من طوارىء المرض والاصابة ، وان الصفات المكتسبة التى تتولد من ذلك تنتقل بالوراثة ولا تزال تتباعد بين الأفراد حتى ينفصل كل منها بنوعه المستقل الذى لا يقبل التناسل مع غيره ، وقد ضرب المثل بالزرافة وافترض انها ــ لطول قوائمها ــ كانت تأكل طعامها من أطراف الشجر العليا ، وتعودت أن تمط عنقها كلما تجردت الفروع السفلى من أوراقها حتى بلغ غاية امتداده ، وثبت على هذا الطول فى أعقابها المتوالية

والنشوئيون الذين يرفضون القول بوراثة الصفات المكتسبة ، يستدلون على بطلان هذا الرأى ببعض الصفات المكتسبة التى شوهدت منذ أجيال كثيرة ، ولم يشاهد لها أثر وراثى فى الأجنة والمواليد ، ومنها أن نساء بورما تعودن منذ أجيال أن يطلن أعناقهن بالأطواق العريضة يضعن طوقا منها فوق طوق حتى تبلغ من الطول غاية الاحتمال ، ولا تزال بناتهن يولدن بأعناق لا تزيد فى طولها على أعناق البنين الذكور ، ومنها أن عادة الختان عند اليهود لم تعقب أثرا وراثيا بعد استمرارها منذ ثلاثين قرنا أو تزيد ، ويشاهد مثل ذلك فى ذرية الحيوان الداجن التى تعود المدجنون له أن يقطعوا أذنابه أو يستأصلوا بعض أعضائه ، فانها تولد بأعضاء كأعضاء آبائها وأمهاتها بعد انقضاء عدة أجيال على تدجينها

ويرى النشوئيون الذين يقولون بوراثة الصفات المكتسبة أن قصر الزمن الذى مر على هذه المشاهدات ــ بالقياس الى الآماد الطوال التى

مرت على تطور الأنواع الحيوانية ــ لا يكفى للجزم بامتناع الوراثة على اطلاقها ، وان اهمال الأعضاء بالقطع ليس من شأنه ــ ضرورة ــ أن يورث ولو طال عليه الأمد ، لأن المقصود بالاهمال ما يحدث أثرا فى قوام البنية الباقية أو ينشأ عن حدوث هذا الأثر فيها

ويلجأ النشوئيون ــ على رأى دارون ووالاس ــ الى تعليل آخر لحدوث التحول فى الأنواع ، فيعللونه بالانتخاب الطبيعى والانتُخاب الجنسى . مع القول بتنازع البقاء لزيادة المواليد الحية على الموارد الكافية لتغذيتها ووقايتها ..

فالزرافة ــ عندهم ــ لم تنقل صفة مكتسبة الى ذريتها ، ولكن أفراد الزراف ولدت قديما وفيها تفاوت فى الصفات كما يتفاوت الأفراد فى جميع الأنواع ، وبقى أطولها عنقا لأنه استطاع أن يبلغ أعالى الشجر حيث يقل الطعام ويقصر غيره من أفراد الزراف عن بلوغه ، وهنا يعمل الانتخاب الطبيعى عمله فتبقى ذرية الزراف الطوال العنق وينقرض ماعداها ، ويعمل الانتخاب الجنسى عمله ــ مع الانتخاب الطبيعى ــ لأن الأفضل من ذكور الحيوان واناثه يفضل على غيره عند الجنس الآخر ، فيعقب كلا الجنسين المفضلين ذرية تشبهه فى الامتياز على سائر الأفراد

وليس مثل الزرافة فى رأى دارون بأسعد حظا من هذا المثل فى رأى لامارك ، لأن المعترضين عليه يقولون ان قلة الورق على فروع الشجر السفلى يبيد صغار الزراف كما يبيد أنواع الحيوان التى تعيش مثله على العشب أو على الشجر القصار ، وان ذكور الزراف أطول أعناقا ــ فى الغالب ــ من اناثه ، فهى خليقة ان تفنى مع غيرها من الزراف القصار الأعناق ..

الا أن الأكثرين من النشوئيين يعتبرون هذا الخطأ سوء تمثيل من دارون ، ولا يجعلونه سببا كافيا لبطلان القول بالانتخاب الطبيعى .. فلو أن دارون نظر الى مزية القوائم الطوال ، ولم ينظر الى مزية العنق الطويل لأمكن تعليل بقاء الزراف الممتاز بالقدرة على الجرى بفعل الانتخاب -

الطبيعى والانتخاب الجنسى فى وقت واحد ، لأنه يفلت من مطارديه ويسبق سائر الزراف الى أماكن المرعى كلما اضطرته ندرة المرعى الى الانتقال من مكان الى مكان . وقد صح تمثيل دارون بأنواع شتى من الحيوان غير نوع الزراف فلم يصادفه فيها مثل هذا الاعتراض

* * *

وبعد الموازنة بين الرأيين — رأى لامارك ورأى دارون ووالاس — يتضح انهما ينتهيان الى نتيجة متشابهة ، وهى ضرورة القول فى النهاية بوراثة الصفات المكتسبة على طول الزمن ، فان لم تنتقل بعد اكتسابها فى حياة فرد واحد فهى منتقلة بعد التجمع والتمكن من فرد الى فرد يتم بينهما التوارث فجأة أو على أثر التدرج البطىء ، ولم يكن فى ذهن دارون فرض معلوم غير طول الزمن يوم خالف النشوئيين من قبله فى تعليله لتحول الأنواع ، وكل ما هنالك ان دارون جرى على عادته من اجتناب الأحكام الايجابية كلما أمكن تعليل الظواهر المجهولة بالعلل السلبية ، فهو يقول ان الأنواع تبقى لأن أسباب الانقراض عجزت عن ابادتها ، بدلا من القول بمؤثرات معينة تخلق الصفات وتؤدى الى انتقالها بالوراثة ، وتكاد آراؤه فى تنازع البقاء وفى الانتخاب الطبيعى والانتخاب الجنسى ، أن تنتهى الى نتيجة واحدة ، وهى أن الاحياء بقيت لأنها لم تنقرض ، وان أسباب الفناء عجزت عن ابادتها كما أبادت غيرها . وهذه العادة الذهنية هى فى وقت واحد مصدر القوة ومصدر الضعف فى تفكير دارون وفى هذا الضرب من التفكير على عمومه .. فانها دليل على الأمانة الفكرية التى تحجم عن تقرير حكم معين قبل ثبوته والاحاطة بحقيقته ، وهى كذلك موضع النقص الظاهر لأن العوامل السلبية لا تقوم عليها دلائل الخلق والانشاء ، وان قامت عليها أحيانا دلائل الزوال الذى يفيد زوال فريق وسلامة فريق ..

وقد كان خطأ النشوئيين فى تقرير مسألة الوراثة نقصا لازما لمباحث العلم الطبيعى فى القرن التاسع عشر ، أيا كان رأى العالم الذى يقرر هذه المسألة ، لأن أسرار الوراثة لم تعرف قبل تقدم علم الناسلات (أو الجينات)

Genetics وظهور فعل الناسلة Gene والصبغيــة Chromosome في نقل الخصائص والفوارق الفردية من الآباء والأمهات الى الأبناء ·· فكل صفة لا تكمن في الناسلة ولا تحتويهـــا صبغية من صبغياتها فهي صفة عارضــة لا تنتقل الى الذرية بالوراثة ، ويقول الأســـتاذ نيفيل جورج ــ أحــد ثقات هذا العــلم ــ ان الانتخاب الطبيعي ــ لأجــل هذا ــ لا يصــلح لتعليل مذهب النشوء أو مذهب التطور ، لأنه يعلل زوال غير الصــالح ولا يعلل نشأة المزايا التي تحقق الصلاح وتكفل لصاحبها الدوام في ميــدان تنازع البقاء ، ثم تفتح الباب لعمل الانتخاب الطبيعي في المستقبل عند التفاوت في تلك المزايا الموروثة بين الأفراد · وانما تنشأ هذه المزايا بعمل من أعمال الطفرة Mutation يكفي لاحداث التغيير المطلوب في الناسلة وفي صبغياتها التي تنقل تلك المزايا بالوراثة ، وقد أمكن العلم بالخواص التي تنقلها كل صبغية من الصبغيات في بعض أنواع النبات والحيوان ، وأمكن التأثير في الصبغية بفعل العقاقير أو الأشعة السينية ، ويقال ان الأشعة الكونية تفعل هذا الفعل اذا نفــذت الى بذور النبات والحيوان ، وبها يعللون التحــول المفــاجيء كما يعللون الاختلاف الطــاريء على النبات في الألوان والأحجام والأشكال ··

وتجري تجارب الأشــعة الآن لاحداث التحول الموروث في أنواع من الذباب والفراش ، وقد تؤدي التجربة فعلا الى ظهور خاصــة في الحشرة تغير ذريتها فتخــالفها بعض المخــالفة ويثبت الاختلاف بعد ذلك على سنن الوراثة المعروفة بالمندلية ، نسبة الى « مندل » صاحب التجارب المشهورة في وراثة الحبوب · ومن هـــذه التجارب تجربة تأثير الأشــعة السينية على ذباب الفاكهة المعروف باسم « الدرسفيلة » Drosophila ·· فان تعريض الذبابة منه للاشعة يغير ذريتها ، فتأتي مخالفة لها في لون العين أو في طول الجناح · ويثبت هــذا الاختلاف بعد ذلك في أجيالها المتعــاقبة على السنة المندلية المقررة لتنظيم خطــة الوراثة على نسق معروف من الأعقــاب الى الأعقاب ··

* * *

ويتجدد الآن سؤال قديم ملازم لفكرة النشوء منذ انتشار مذاهبه قبل تقديم علم الناسلات : فما هو مدى سريان التطور على الجنس البشرى ؟ هل هناك حد فاصل بين البشرية والحيوانية ؟ واذا أمكن غدا تحسين أنواع الحيوان بمعالجة الناسلات ، فهل يمكن استخدام هذه الوسائل فى تحسين صفات الانسان الفكرية والروحية ؟ ..

ان النشوئيين قد تساءلوا عن هذا الفاصل ، منذ قرروا آراءهم عن التطور على قواعد العلوم التجريبية ، وأجابوا عنه اجاباتهم على حسب عقائدهم مرة وعلى حسب أمزجتهم مرة أخرى

فالعالم الفرنسى بوفون يقرر أن تقسيم الأنواع يتناول الانسان من جانبه الحيوانى ، ولا يعرض لجوانبه المميزة له فى عقائد المؤمنين ، ودارون يقول انه يتكلم عن الأطوار التى تؤثر فى جسد الانسان ولا شأن له بما عدا ذلك من الملكات الروحية التى يقررها له الدين . وهذه الأجوبة من النشوئيين ليست بالأجوبة الحديثة فى بابها على ذلك السؤال القديم . فان ابن سينا — مثلا — كان يقرر مذهب الطب فى الأمراض التى تنسب الى فعل الجان والأرواح الخبيثة أو الطيبة ، فيقول انه لا ينبغى هذا الفعل ولكنه ينظر الى آثاره الجسدية فيرى أنها تحدث الأعراض التى يعالجها بعلاجها الطبى الموصوف لها عند الأطباء

وليس النشوئيون جميعا على منهج بوفون ودارون أو منهج ابن سينا وأصحابه من علماء الزمن القديم ، فان بعض علماء النشوء المحدثين — وعلى رأسهم ارنست هكل — ينكرون كل نسبة للانسان غير نسبته الى أنواع الحيوان ، ويجعلون لهذه النسبة شجرة تجمع بينه وبين القردة العليا وتنزل فى جذورها الى القردة المذنبة التى تعيش فى أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية Marmosets وقلما تحتمل الجو فى الأقاليم الشمالية ،ومن دونها الليمور Lemur قرد مدغشقر ، وهو موضوع فى شجرة النسب دون قردة « المرموز » الأمريكية

ويرتب النشوئيون القردة العليا — صعدا — من الجيبون الى الأورانج ،

الى الشمبانزى ، الى الغوريلا ، وقد يفرقون بينها فى درجات الرقى بحسب اعتمادها على تسلق الأشجار أو المشى على أديم الأرض والقدرة على الوقوف واعتدال القامة عند السير على قدمين ·· فأدناها ما كان اعتماده كله على التسلق ومعيشته كلها فوق الأشجار ، وأعلاها ما استغنى عن تسلق الاشجار واحتاج الى استخدام يديه وهو ماش على قدميه ، فان نمو الدماغ مرتبط بدرجة اعتدال العمود الفقرى وعظام العنق ودرجة التصرف باليدين عن قصد وارادة لتحقيق عمل من الأعمال ، ويزعم هؤلاء النشوئيون ان « التطور » الانسانى له علامات تبدأ من قردة الليمور وقردة المرموز المذنبة ، وتتدرج ـ صعدا ـ الى الانسان حيث يزول الذنب وينمو الدماغ وتتحول اليد الى أداة صالحة للتناول غير مقصورة على المشى أو التعلق بفروع الأشجار · ومجمل تلك العلامات أنها بوادر الجلوس والوقوف واختفاء الذنب ومخالب القدمين واليدين

ويذهب أحد النشوئيين المحدثين الى القول بأن نوع الانسان سابق لأنواع القردة بمئات الألوف من السنين ، وان القردة العليا أناسى ممسوخة فقدت أوائل الصفات البشرية ، وانحدرت فى الصفات العقلية والجسدية الى مادون تلك المرتبة بكثير أو قليل ··

وصاحب هذا الرأى هو الدكتور هرمان كلاتش Klaatsch الذى كان يدرس علم الانسان بجامعة برسلو قبل الحرب العالمية الأولى ، وعنده أن انسان جاوه الذى وجدت بقاياه المتحجرة وأطلق عليه العلماء اسم Pithecanthrolus هو المرتبة الوسطى التى صعد منها خلفاؤها الى ما فوقها وهبط منها الخلفاء الآخرون الى مادونها ، ويزعم « كلاتش » أن الانسان ينتمى الى أصول متعددة ، ولا ينجم كله من أصل واحد ·· فالمغوليون وقرد الأورانج من أصل واحد ، وزنوج افريقية والشمبانزى والغوريلا من أصل آخر ، ولكنه زعم لا تؤيده المقابلة بين هذه الأحياء فى الخصائص التشريحية ··

* * *

ومن المفارقات ان هؤلاء النشوئيين النسابين لم يبلغوا بالفرد ذلك

الشبه ألذى تصورته طائفة من الأقدمين قبل انتشار القول بالتطور واشتباك الأنواع والأجناس ٠٠ فان تلك الطائفة من الأقدمين تصورت أن جميع القردة أناسي ممسوخون عقلت ألسنتهم وبقيت لهم أفهامهم ، وليس بينهم وبين الناس من فارق غير الفارق الذى يباعد بين الكائنات المشوهة والكائنات السوية من أصل واحد ، ولكن شجرة النسب تحتاج الى علم التشريح لالتقاط المشابه التى ترجح القول بوحدة الأصول الجسدية بين الانسان وبين أقوم الخلائق من أنواع الحيوانات العليا ٠٠

يقول آرثركيث - من أكبر النشوئيين المتأخرين - فى كتابه شجرة نسب الانسان : « ان الأستاذ وود جونس لفت النظر الى بقاء علامات كثيرة فى تركيب الانسان قد اختفت من تراكيب القردة العليا وعامة القرود ، وان هذه القردة العليا وسائر القرود قد احتفظت بعلامات شتى زالت من تركيب الانسان ، ولست أرى أن هذه الشذوذات تستدعى تعديل شجرة النسب التى رسمتها هنا ، ولكنى أرى أن تفسيرها ينبغى أن يلتمس فى زيادة العناية بفهم قوانين الوراثة ، فان الكائنات الحية أشبه بأشكال الفسيفساء المتداخلة ينتقل بعض أنماطها بالوراثة ويختفى غيرها ٠٠فالغوريلا تولد فى أكبادها الفصيصات التى تتولد فى أكباد القرود ، بينما تقترب كبد الأورانج أشد الاقتراب فى تركيبها المتماسك من كبد الانسان ، ولكننا ينبغى أن نفترض أن هذين الحيوانين تحدرا منذ عهود بعيدة من سلف مشترك يشبه تركيب كبده تركيب كبد الجيبون »

ثم يستطرد الى بيان الشبه بين الانسان والقردة الافريقية فيقول : « ان الانسان له على جانبى تجويفه الأنفى سلسلة من الجيوب تسمى بأسماء العظام التى تجاورها ٠٠ ولا يسعنا أن نعتقد أنها تتولد على حدة فى نوعين من الحيوان ، ويوجد هذا النمط الانسانى فى كل من الشمبانزى والغوريلا ، وان كانت الجيوب فى الغوريلا وحدها قد اتخذت لها نمطا آخر ، ومن الجائز أن نمطا آخر كان موجودا فى أنف سلف الأورانج ويصعب التحقق منه بعد اتنكاس تركيب الأنف كله فى هذا العضو الكبير من أعضاء الحيوانات القردية العليا ٠٠ وقد عرف أن دم الغوريلا ودم الشمبانزى أقرب استجابة الى الانفعال بدم الانسان من جميع الفقاريات ٠٠ وتبلغ

العلامات المشتركة بين الانسان وكل من الشمبانزى والغوريلا نسبة الى سائر العلامات التى أحصيتها تقدر بثمانية وسبعة أعشار فى المائة ، ولهذا أتوقع أن بقية من بقايا المتحجرات تنكشف يوما فى افريقية نعتبر السلف المشترك بين الغوريلا والشمبانزى والانسان »

هذه هى العلامات التشريحية التى انتهى اليها أصحاب شجرة النسب من النشوئيين المتأخرين ، وما عداها من العلامات ووجوه الشبه لا يعدو أن يكون اعادة لتصوير المشابه العامة التى يلمحها النظر لأول وهلة بغير حاجة الى تشريح الأعضاء ، وقد أحصاها الأستاذ « شابمان بنشر » Pincher فى كتابه عن تعليل التطور ، ثم عقب عليها قائلا : « انه لا احتمال لتسلسل الانسان من القردة كما نعرفها ، لأن القردة منفردة بتركيب خاص يستحيل تشريحيا أن يتطور منه تركيب الانسان ، اذ كان الانسان قد نما له خلال مليون سنة دماغ أكبر وقامة أقوم ويد ـ فوق هذا وذاك ـ أصلح للتناول والتصرف بالاستعمال »

وهذا الفاصل الحاسم هو قصارى مدى الاقتراب بين النوع البشرى وسائر أنواع الأحياء بمقياس التطور وعلم الوراثة ، يعبر عنه النشوئى فيقول انه سبق مليون سنة ، ليلحق به مدى الفارق الروحى فى تعبير الدين

التطور قبل مذهب التطور

ان اختلاط الأنساب بين أنواع الحيوان خاطر قديم توارثه الأقدمون من أزمنة مجهولة ، وندرت أمة من أمم السلف البعيد لم تتوافر فيها الأخبار والاساطير عن التناسل بين أنواع الحيوان أو بين الانسان والحيوان ، أو بين الانس والجن ، أو بين الانس وأرباب الأساطير المشبهين بالانسان ٠ ومرد هذه الأخبار والأساطير — على الأكثر — الى جهل الأوائل بوظائف الأعضاء ، وجهلهم بالشروط الحيوية التي تلزم للحمل والولادة وامكان التناسل بين الأزواج المستعدة للتناسل فى النوع الانسانى فضلا عن سائر الأنواع ، فكل ما يلد من نوعه صالح عندهم للتوليد من أنواع الأحياء

وقد سبق القول بالتطور وتدرج الكائنات ، كما سبق القول بتحول الأنواع وتناسلها ٠٠ ولكن لعلة غير تلك العلة ، مردها — على الأرجح — الى المفاضلة والترتيب بين الكائنات على حسب حظها من الحياة أو من مشابهة الأحياء ٠٠ ثم نشأت علوم الكيمياء والطب والزراعة ، فكان للعلم عمله فى التفرقة بين المواد الكيمية المعدنية والنباتية والحيوانية ، واشترك الأحياء وغير الأحياء فى مباحث الكيمياء ، ثم جاءت فى مباحث المتأخرين مقابلة الكيمياء العضوية بالكيمياء غير العضوية

ومما يشبه القول بتطور الكائنات وتدرجها قول الفارابى فى شرحه لأقوال المعلم الأول من كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » ان « ترتيب هذه الموجودات ، هو أن تقدم أولا أخسها ، ثم الأفضل فالأفضل ، الى أن تنتهى الى أفضلها الذى لا أفضل منه ، فأخسها المادة الأولى المشتركة والأفضل منها الاسطقسات ثم المعدنية ثم النبات ثم الحيوان غير الناطق ، وليس بعد الحيوان الناطق أفضل منه »

ويذهب الفارابى على هذا الترتيب فى التفرقة بين الانسان والانسان ،

بمقدار حظه من القـــوة الناطقــة ، فيجيز أن يكون بعض أشـــباه الآدميين بالصورة الجسدية غير محاسبين أو غير أهل للحياة الأخرى

ويقول الكتبى (١) وهو يتكلم عن طبائع القرد : « ان هذا الحيوان عند المتكلمين فى الطبائع مركب من انسان وبهيمة ، وهو من تدريج الطبيعة من البهيمة الى الانسان »

ويقول القزوينى صاحب « عجائب المخلوقات » بعد تقسيمه الأجسام الى نام وغير نام ، وهو ما يقابل اليوم تقسيمها الى العضوى وغير العضوى ، ان « أول مراتب هذه الكائنات تراب وآخرها نفس ملكية طاهرة ، فان المعادن متصلة أولها بالتراب أو الماء وآخرها بالنبات ٠ والنبات متصــل أوله بالمعــادن وآخره بالحيوان ، والحيوان متصــل أوله بالنبــات وآخره بالانسان ، والنفوس الانسانية متصــلة أولها بالحيوان وآخرهــا بالنفوس الملكية ٠٠ »

وهذا الانتقال من المشابهة بالجسد الى المشابهة بالنفس شبيه باحتراس النشوئيين المحدثين عند التفرقة بين الانسان من جانبه الحيوانى والانسان من جانبه الروحى أو جانب القوى الأدبية الوجدانية ٠٠

ويقول اخوان الصفاء فى رسالتهم العاشرة : « اعلم يا أخى ان أول مرتبة النباتية أو دونها مما يلى التراب هى خضراء الدمن ، وآخرها وأشرفها مما يلى الحيوانية النخل ، وذلك لأن خضراء الدمن ليست بشيء ســوى غبار يتلبد على الأرض والصخور والأحجار ، ثم يصيبها المطر فتصبح بالغــداة خضراء كأنه نبت زرع وحشائش ، فاذا أصابها حر الشمس نصف النهار تجف ثم تصبح بالغد مثل ذلك من نداوة الليل وطيب النسيم ، ولا تنبت الكماة ولا خضراء الدمن الا فى أيام الربيع فى البقاع المتجاورة لتقــارب ما بينها ٠٠ وأما النخل فهو آخر مرتبة النبات مما يلى الحيوانية ، وذلك

---

(١) محمد بن شاكر بن عبـــد الرحمن الكتبى الدارانى ٠ ولد فى دارية من قرى دمشق وتوفى سنة ٧٦٤ وأشهر كتبه المطبوعة « فوات الوفيات »

أن النخل نبات حيوانى لأن بعض أحواله وأفعاله مباين لأحوال النباتات وان كان جسما نباتيا ·· وفى النبات نوع آخر فعله أيضا فعل النفس الحيوانية ، وان كان جسمه جسما نباتيا وهو الأكشوت ، وذلك ان هذا النوع من النبات ليس له أصل ثابت فى الأرض كما يكون لسائر النبات . ولا له ورق كأوراقها بل هو يلتف الى الأشجار والزروع والبقول والحشائش ويمتص من رطوبتها ويتغذى كما يفعل الدود الذى يدب على ورق الأشجار وقضبان النبات ·· وان أدون الحيوان وأنقصه هو الذى ليس له الا حاسة واحدة وهو الحلزون ، وهى دودة فى جوف أنبوبة تنبت فى تلك الصخور التى تكون فى بعض سواحل البحار وشطوط الانهار ، وتلك الدودة تخرج نصف شخصها من جوف تلك الأنبوبة ، وتنبسط يمنة ويسرة تطلب مادة تغذى بها جسمها ، فاذا أحست رطوبة ولينا انبسطت اليه وان أحست بخشونة أو صلابة انقبضت وغاصت فى جوف تلك الانبوبة حذرا من مؤذ لجسمها ومفسد لهيكلها ، وليس لها سمع ولا بصر ولا شم ، الا ذوق اللمس حسب · وهكذا أكثر الديدان التى تكون فى الطين فى قعر البحر وعمق الأنهار ليس لها سمع ولا بصر ولا ذوق ولا شم ، لأن الحكمة الالهية لم تعط الحيوان عضوا لا يحتاج اليه فى وقت جر المنفعة أو دفع المضرة ، لأنه لو أعطاها ما لا تحتاج اليه لكان وبالا عليها فى حفظها وبقائها · فهذا النوع حيوانى نباتى لأنه ينبت جسمه ، كما ينبت بعض النبات ، ومن أجل أنه يتحرك بجسمه حركة اختيارية فهو حيوان ، ومن أجل أنه ليس له الا حاسة واحدة فهو أنقص الحيوانات رتبة ، وتلك الحاسة أيضا هى التى يشاركها النبات فيها وذلك أن النبات له حس اللمس حسب »

ويقول ابن مسكويه من علماء القرن الرابع والخامس للهجرة فى كتابه تهذيب الأخلاق بعنوان الأجسام الطبيعية : « ان الأجسام الطبيعية كلها تشترك فى الحد الذى يعمها ثم تتفاضل بقبول الآثار الشريفة والصور التى تحدث فيها ، فان الجماد منها اذا قبل صورة مقبولة عند الناس صار بها أفضل من الطينة الأولى التى لا تقبل تلك الصورة · فاذا بلغ الى أن يقبل صورة النبات صار بزيادة هذه الصورة أفضل من الجماد ، وتلك

الزيادة هي الاغتذاء والنمو والامتداد في الاقطار واجتذاب ما يوافقه من الأرض والماء وترك ما لا يوافقه ونفض الفضلات التي تتولد فيه من جسمه بالصموغ ، وهذه هي الأشياء التي ينفصل بها النبات من الجماد ، وهي حال زائدة على الجسمية التي حددناها وكانت حاصلة في الجماد ، وهذه الحالة الزائدة في النبات التي شرف بها على الجماد تتفاضل ، وذلك أن بعضه يفارق الجماد مفارقة يسيرة كالمرجان وأشباهه ، ثم يتدرج فيها فيحصل له من هذه الزيادة شيء بعد شيء .. فبعضه ينبت من غير زرع ولا بذر ولا يحفظ نوعه بالثمر والبذر ، ويكفيه في حدوثه امتزاج العناصر وهبوب الرياح وطلوع الشمس ، فلذلك هو في أفق الجمادات وقريب الحال منها .. ثم تزداد هذه الفضيلة في النبات ، فيفضل بعضه على بعض بنظام وترتيب حتى تظهر فيه قوة الاثمار وحفظ النوع بالبذر الذي يخلف به مثله ، فتصير هذه الحالة زائدة فيه ومميزة له عن حال ما قبله .. ثم تقوى هذه الفضيلة فيه حتى يصير فضل الثالث على الثاني كفضل الثاني على الأول ، ولا يزال يشرف ويفضل بعضه على بعض حتى يبلغ الى أفقه ويصير في أفق الحيوان ، وهي كرام الشجر كالزيتون ، والرمان ، والكرم ، وأصناف الفواكه .. الا أنها ــ بعد ــ مختلطة القوى ، أعني أن قوى ذكورها وأناثها غير متميزة ، فهي تحمل وتلد المثل ولم تبلغ غاية أفقها الذي يتصل بأفق الحيوان . ثم تزداد وتمعن في هذا الأفق الى أن تصير في أفق الحيوان فلا تحتمل زيادة . وذلك انها ان قبلت زيادة يسيرة ، صارت حيوانا وخرجت عن أفق النبات .. فحينئذ تتميز قواها ويحصل فيها ذكورة وأنوثة وتقبل من فضائل الحيوان أمورا تتميز بها عن سائر النبات والشجر ، كالنخل الذي طالع أفق الحيوان بالخواص العشر المذكورة في مواضعها ، ولم يبق بينه وبين الحيوان الا مرتبة واحدة وهي الاطلاع من الأرض والسعي الى الغذاء . وقد روى في الخبر ما هو كالاشارة أو كالرمز الى هذا المعنى وهو قوله صلى الله عليه وسلم :

« أكرموا عماتكم النخل ، فانها خلقت من بقية طينة آدم »

ويستطرد ابن مسكويه الى ذكر الحيوان بما يشبه قول المحدثين عن أسلحة الحيوان في تنازع البقاء ، فيقول ان الحيوان : « ان كان ضعيفا لم

بعط سلاحا البتة ، بل أعطى آلة الهرب كشدة العدو والقدرة على الحيل التى تنجيه من مخاوفه · وأنت ترى ذلك عيانا من الحيوان الذى أعطى القرون التى تجرى له مجرى الرماح ، والذى أعطى الأنياب والمخالب التى تجرى له مجرى السكاكين والخناجر ، والذى أعطى آلة الرمى التى تجرى له مجرى النبل والنشاب ، والذى أعطى الحوافر التى تجرى له مجرى الدبوس والطبرزين · فأما ما لم يعط سلاحا لضعفه عن استعماله ولقلة شجاعته ونقصان قوته الغضبية ، ولأنه لو أعطيه لصار كلا عليه ، فقد أعطى آلة الهرب والحيل بجودة العدو والخفة والختل والمراوغة كالأرانب وأشباهها ·· فأما الانسان فقد عوض من هذه الآلات كلها بأن هدى الى استعمالها كلها ·· »

ثم يتدرج الى أقرب الحيوان الى الانسان ، وهو « الذى يحاكى الانسان من تلقاء نفسه ويتشبه به من غير تعليم كالقردة وما أشبهها ، ويبلغ من ذكائها أن تستكفى فى التأدب بأن ترى الانسان يعمل عملا فتعمل مثله من غير أن تحوج الانسان الى تعب بها ورياضة لها · وهذه غاية أفق الحيوان التى ان تجاوزها ولو زيادة يسيرة ، خرج بها عن أفقه وصار فى أفق الانسان الذى يقبل العقل والتمييز والنطق والآلات التى يستعملها والصور التى تلائمها ··

« ولا يقف التدرج عند أفق الانسان ، بل يتفاضل الناس بين أمم لا تتميز عن القرود الا بمرتبة يسيرة ، وأمم تتزايد فيهم قوة التمييز والفهم الى أن يصيروا الى وسط الأقاليم فيحدث فيهم الذكاء وسرعة الفهموالقبول للفضائل ، والى هذا الموضوع ينتهى فعل الطبيعة التى وكلها الله عز وجل بالمحسوسات ، ثم يستعد بهذا القبول لاكتساب الفضائل واقتنائها بالارادة والسعى والاجتهاد الذى ذكرناه فيما تقدم ، حتى يصل الى آخر أفقه ·· فاذا صار الى آخر أفقه اتصل بأول أفق الملائكة ، وهذا أعلى مرتبة الانسان ·· وعندها تتأحد الموجودات ويتصل أولها بآخرها ، وهو الذى يسمى دائرة الوجود ، لأن الدائرة هى التى قيل فى حدها أنها خط واحد يبتدىء بالحركة من نقطة وينتهى اليها بعينها · ودائرة الوجود هى المتأحدة التى جعلت الكثرة وحدة ، وهى التى تدل دلالة صادقة برهانية على موجدها وحكمته وقدرته ووجوده ، تبارك اسمه وتعالى جده وتقدس ذكره »

الى أن يقول مخاطبا طالب المعرفة : « وحدث لك الايمان الصحيح وشهدت ما غاب عن غيرك من الدهماء ، وبلغت أن تتدرج الى العلوم الشريفة المكونة التى مبدؤها تعلم المنطق ، فانه الآلة فى تقويم الفهم والعقل الغريزى ثم الوصول به الى معرفة الخلائق وطباعها ثم التعلق بها والتوسع فيها والتوصل منها الى العلوم الالهية ، وحينئذ تستعد لقبول مواهب الله عز وجل وعطاياه ، فيأتيك الفيض الالهى ، فتسكن عن قلق الطبيعة وحركاتها نحو الشهوات الحيوانية وتلحظ المرتبة التى ترقيت منها أولا فأولا من مراتب الموجودات ، وعلمت أن كل مرتبة منها محتاجة الى ما قبلها فى وجودها ، وعلمت أن الانسان لا يتم له كماله الا بعد أن يصل الى ما قبله ، واذا صار انسانا كاملا وبلغ غاية أفقه أشرق نور الأفق الأعلى عليه ، وصار أما حكيما تاما تأتيه الالهامات فيما يتصرف فيه من المحاولات الحكيمة والتأييدات العلوية فى التصويرات العقلية ، وأما نبيا مؤيدا يأتيه الوحى على ضروب المنازل التى تكون له عند الله تعالى ذكره ، فيكون حينئذ واسطة بين الملأ الأعلى والملأ الأسفل .. ولذلك تكثر حاجات الناس الى المقومين والمنفعين .. »

وفحوى كلام ابن مسكويه أن الترقى الطبيعى ينتهى الى غاية وسع الطبيعية من ترقية الجسد واتمام حسه وأعضائه ، ثم يبدأ الترقى بالعقل والخلق من أفق الحيوان الى ما هو أعلى وأرفع وأقرب الى الملأ الأعلى ..

ولابن مسكويه بحث كهذا فى كتابه « الفوز الأصغر » يبدأ فيه من البداءة ، وهى ما سماه بالمركز فيقول : « ان أول أثر ظهر فى عالمنا هذا من نحو المركز بعد امتزاج العناصر الأولى — أثر حركة النفس فى النبات ، وذلك أنه تميز عن الجماد بالحركة والاغتذاء ، وللنبات فى قبول الأثر مراتب مختلفة لا تحصى ، الا أنها مقسمة الى ثلاث مراتب : الأولى والوسطى والأخيرة ، لكن الكلام عليه أظهر » .. ثم ينتهى كما انتهى بكلامه فى تهذيب الأخلاق الى آخر مرتبة الحيوان وهى « مراتب القرود وأشباهها من الحيوان الذى قارب الانسان فى خلقته الانسانية ، وليس بينها الا اليسير الذى اذا تجاوزه صار انسانا »

* * *

وأشار ابن خلدون الى هذا التدرج ـ أو التطـور ـ فترقى به من المعدن الى القرد الى الانسان ، وعلل اختلاف الناس بتأثير الاقليم وأحوال المعيشة على الابدان والأخلاق ..

قال : « ان عالم التكوين ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج : آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبـات مثل الحشـائش وما لا بذور له ، وآخـر أفق النبات مثل النخل ، والـكرم ، متصل بأول أفق الحيـوان مثل الحلزون والصـدف ولم يوجد لهـا الا قوة اللمس فقط ، ومعنى الاتصال فى هذه المكونات أن آخر أفق منها مسـتعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول الأفق الذى بعده ، واتسـع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى فى تدريجه التكوينى الى الانسان صـاحب الفكر والروية ترتفع اليه من عالم القردة الذى اجتمع فيه الحس والادراك ، ولم ينته اليه الفكر والروية بالفعل .. وكان ذلك أول أفق الانسان من بعده ، وذلك غاية شهودنا .. »

وينفى ابن خلدون أوهام القائلين بنسبة الألوان والطبائع الى الدعوات أو اللعنات ، فيقول ان « بعض النسابين ممن لا علم لهم بطبائع الكائنات » توهم أن السودان وهم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها فى لونه وفيما جعل الله من الرق فى عقبه .. ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع فى التوراة ، وليس فيه ذكر السواد .. وانما دعا عليه أن يكون ولده عبيدا لولد اخوته لا غير . وفى القول بنسبة السواد الى حام علة من طبيعة الحر والبرد وأثرهما فى الهواء ، وفيما يتكون فيه من الحيوانات »

ويقول فى موضع آخر : « اسـتولى الحر على أبدانهم وفى أصـل تكوينهم ، فكـان فى أرواحهم من الحرارة على نسبة أبـدانهم .. وكذلك يلحق بهم قليلا أهل البلاد البحرية لما كان هواؤها متضـاعف الحرارة بما ينعكس عليه من أضواء بسيط البحر وأشعته »

ويصحح بعض المتقدمين ما لعله يسبق الى الوهم من القـول بتدرج

الكائنات ، اذ يخيل الى الجاهلين بمعناه أنه يعنى تنقل الكائنات فى درجة درجة من مراتبه المترقية ، وانما حقيقته كما قال الخازنى : « اننا اذا قلنا ان الانسان بلغ حد الكمال وكان يوما عجلا فصار حمارا فغدا حصانا فأضحى بعده قردا ، فليس معنى ذلك انه كان يوما عجلا فصار حمارا فغدا حصانا فأضحى بعده قردا حتى صار فى النهاية انسانا »

فليس عندهم من الضرورى أن يكون كل كائن رفيع قد تنقل قبل ذلك بين أطوار الكائنات التى هى دونه ، وان كان جميع المتكلمين فى أطوار الكائنات الحية لا يمنعون امكان التسافد بين بعض الحشرات والحيوانات المختلفة ، كما جاء فى كتب الحيوان جميعا ، وأسهب فيه الجاحظ على الخصوص اسهابا سلم فيه من كثير من خرافات المتقدمين عليه واللاحقين به فى هذا الباب ، وأكثرهم ترديدا لهذه الخرافات القزوينى صاحب عجائب المخلوقات ، فهو حافل بالأساطير عن اختلاط أنواع الأحياء ، وعن الخلائق الأسطورية التى انقرضت ولم يبق منها غير آثارها وأخبارها ، وعجائب المخلوقات التى تتواتر الأحاديث عن وجودها فى الأطراف النائية التى لم يصل اليها أحد غير من ضل طريقه أو جنحت به السفن من الملاحين والمغررين وهذه الأساطير ــ كما قلنا فى غير هذا الكتاب (١) ــ تنفعنا الآن أكثر مما تنفعنا حقائق تلك الكتب « لأنها هى البقية الباقية لنا من تلك الأوهام التى تسلطت على العقل البشرى فى أزمانه الخالية ، وهى المفتاح الذى ليس لدينا مفتاح سواه لخزانة المخيلة ، وما أكنته من تصورات الانسان ووجدانه وما انطبع فيها من البدائه العميقة المتغلغلة التى عودتنا أن تنطق بالأحاجى والألغاز تبهم حتى على صاحبها وهو الذى أوجدها وصورها ٠٠ وهذا الكتاب الذى نحن بصدده مكتظ بتفصيل أنواع هذه الحيوانات وما يتشاكل منها فى البر والبحر ٠٠ فمنها كلب الماء وقنفذ الماء وبقرة الماء وفرس الماء ، وزعموا انها تلد من خيل الأرض ، ومنها انسان الماء ويشبه الانسان الا أن له ذنبا ٠ وقد جاء شخص بواحد منه ــ على قول القزوينى ــ الى بغداد فعرضه على الناس ، وذكر أنه فى بحر الشام ببعض الأوقات يطلع من الماء الى

---

(١) كتاب الفصول ٠

الحاضرة انسان ، وله لحية بيضاء يسمونه شيخ البحر ويبقى أياما ثم ينزل فاذا رآه الناس يستبشرون بالخصب • وحكى أن بعض الملوك حمل اليه انسان مائى فأراد الملك أن يعرف حاله ، فزوجه امرأة نجاء منها ولد يفهم كلام الأبوين ، فقيل للولد : ماذا يقول أبوك • قال أذناب الحيوان كلها على أسافلها ما بال هؤلاء أذنابهم على وجوههم • ونقل عن يعقوب بن اسحاق السراج أن رجلا ركب البحر فألقته الريح الى جزيرة ‥ « فأتى قوم وجوههم كوجوه الكلاب وسائر أبدانهم كأبدان الناس »

وهذه الأساطير وما شاكلها قد تدرس على أنها تعبيرات من عمل المخيلة فى فهم الصور البعيدة بزمانها أو مكانها ، وقد تدرس على أنها ترجمان للوعى الباطن الذى استقر فى أعماق بديهة الانسان وغرائزه الوراثية ، ولا بد أن تدرس فى جميع الأحوال لأنها مما يصح أن يعتبر « مسودات » للإدراك الانسانى تظهر فى كل عصر ولا تزال فى كل عصر معلقة بين الشك واليقين وبين الوهم والصدق فى انتظار التصحيح والتنقيح

أثر مذهب النشوء في الغرب

قوبل اعلان مذهب النشوء في الغرب بثورة عاصفة من حملات الاستنكار والتكفير في البيئات الدينية ، ويرى بعد انقضاء أكثر من قرن على اعلان هذا المذهب أن حملات الدينيين عليه في البلاد الغربية لم تكن أحذق ولا أليق بالبحث الديني أو العلمي من أشباه هذه الحملات التي قوبل بها بلادنا الشرقية يوم انتقل اليها للمرة الأولى ، كما سنبينه فيما يلي :

لقد حرم بعض معاهد العلم تدريس مذهب النشوء ، فظل هذا التحريم باقي الأثر الى ما بعد الحرب العالمية الأولى بسنوات ، وحوكم الأستاذ سكوب في دايتون (شهر يولية سنة ١٩٢٥) لأنه خالف القانون الذي حرم تدريس المذهب لخروجه على العقيدة الدينية ، وهذه بعض الأسئلة والأجوبة التي سجلت أثناء المحاكمة بين محامي الدفاع وخبير الاتهام :

ـ هل تقرر أن كل ما ورد في التوراة ينبغي أن يقبل بتفسيره الحرفي ٠

ـ أنا أقرر أن كل ما ورد في التوراة ينبغي أن يقبل كما ورد فيه ٠ وبعض ما جاء في التوراة قد ورد في سياق التشبيه ، كقوله : « انكم ملح الأرض » ٠ فلا استلزم من ذلك أن الانسان كان ملحا أو انه كان له دم من الملح ، ولكنني أفهمه كما أفهم معنى شعب الله المختار ٠٠

ـ هل لك أن تخبرني يامستر بريان كم عمر الكرة الأرضية ؟

ـ كلا ياسيدي ٠٠ لست أدري

ـ ولا على وجه التقريب ؟ ٠٠

ـ لست أحاول ٠٠ ولعلي أقترب من تقدير العلماء ، ولكنني أحب أن أدقق كثيرا قبل الجواب

ـ انك لا تعبأ كثيرا بالعلماء ٠٠ أتعبأ بهم حقا ؟

ـ نعم ياسيدى ٠٠

ـ أتعتقد ان الكرة الأرضية صنعت فى ستة أيام ؟

ـ ستة أيام نعم ٠٠ ولكنها ليست أيام الأربع والعشرين ساعة

* * *

وقد احتدم الجدل أثناء الاستجواب حتى اندفع الفريقان الى التشهير بالعقائد الشائعة وبالمذاهب العلمية التى كانت مباحة للناشرين محرمة على المعلمين ، وكان أثر الضجة التى رددتها الصحف والأندية الثقافية حول هذه المحاكمة أن قانون التحريم سقط بالاهمال ثم بالالغاء

الا أن الباحثين الدينيين عدلوا أخيرا عن التحريم بقوة القانون الى مناقشة المذهب بالبراهين العلمية ، فأخذ منهم فريق فى تفسير المذهب بالمعنى الذى يوافق الروايات الدينية بمعانيها الرمزية ، وأخذ الفريق الآخر فى انكاره بالأدلة العلمية التى استند اليها العلماء ولا يزالون يستندون اليها الى هذه الأيام ٠٠

فصدر عند الاحتفال بانقضاء ستين سنة على اعلان المذهب ، كتاب من كتب البحث العلمى على الطريقة الدينية ألفه الأستاذ ث٠ب ٠ بيشوب وسماه « النشوء منتقدا » (١) ولم يتزحزح فيه عن نصوص الكتب ، ولكنه أخرج من هذه النصوص ما يتناول الفترات التى تضطرب فيها روايات التاريخ كالفترة بين الفيضان ووفود الخليل ابراهيم الى كنعان ، وأخرج منها الفترات التى لا تتعارض فيها النصوص والشواهد الجيولوجية ، ثم بنى انتقاده للمذهب على مطالبة النشوئيين بالدليل ٠٠ لأن العصور الجيولوجية لم تتكشف قط عن انسان يخالف فى تكوينه الثابت تكوين النوع الانسانى فى صورته الحاضرة ، ولم تبق من آثار الطوارىء الجيولوجية

(١) Evolution Criticised

بقية من أنواع الأحياء الأولى ، بل يرجح أن أقدم هذه العصور لا يعود بنا الى مسافة أبعد من منتصف الطريق ، كما رأى والاس شريك دارون ·· حيث يقول فى كتابه عن عالم الحياة « انه لمن المحتمل جدا أن السجلات الجيولوجية الباقية لا تحملنا الى أبعد من منتصف العمر الذى عمرته الحياة على الكرة الأرضية »

فليس فى السجلات الجيولوجية دليل ولا قرينة تؤيد القول بتطور الانسان من نوع آخر ، وأهم من ذلك أنه لا يوجد أمامنا دليل يؤيد تحول الأنواع فى عالم الحيوان أو عالم النبات ، وان تشابه الأجنة الذى يتخذه بعض النشوئيين دليلا على التشابه القديم بين أنواع الحيوانات دليل مكذوب ، لأن صور الاجنة الصحيحة لا تبرز هذا الشبه ، وما عدا ذلك من الصور المتشابهة فهو مزور باعتراف واضع تلك الصور العالم الألمانى أرنست هكل ، فانه أعلن بعد انتقاد علماء الأجنة له أنه اضطر الى تكملة الشبه فى نحو ثمانية فى المائة من صور الأجنة لنقص الرسم المنقول

ولم يدع بيشوب دليلا علميا بغير تعقيب عليه ، يستند الى أقوال العلماء المختصين ·· فقال ان حصان الحفريات على أقدم صوره لم يثبت من نسبته الى نوع الخيل غير الأسنان ، وان الطائر الذى قيل انه الحلقة المفقودة بين الزواحف والطيور لم يتبعه قط فى تسلسل الحفريات طائر ذو أسنان ، وأيا كان نظام التطور بالنسبة الى الخالق فالعالم النشوئى الأمين على علمه لا يتخذه سببا من أسباب الالحاد ، وكذلك كان والاس مؤمنا بالعقل المدبر كما قال فى كتابه عن عالم الحياة ، اذ يقرر جازما باعتقاده « ان ما نتطلبه – اطلاقا – ولا مناص من الاستدلال عليه ، هو ذلك العقل الذى هو أسمى وأعظم وأقوى من كل هذه العقول المتفرقة التى نراها حولنا ، وانه لعقل لا يقدر على تسيير هذه القوى العاملة فى الأنواع الحية وعلى ارشادها وتدبيرها وحسب ، بل انه لهو بذاته ينبوع تلك القوى والعوامل ، وينبوع لما هو الأساس الأول لكل مافى هذه العوالم المادية ·· »

* * *

ويؤخذ من متابعة الفترات التى يستعاد فيها النقاش حول أصل الانسان

أنها ترتبط بالمحن « الروحية » التى تثيرها مشكلات العالم الكبرى ، وأكبرها فى القرن العشرين مشكلة الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية ، وقد تكون المناسبة لاستعادة النقاش تاريخية من قبيل الذكريات الموقوتة بالعشرات أو بالمئات من السنين ، ولكنها انما تستعاد فى هذه المناسبات ببواعث الشكوك والمنازعات التى تصاحب الحروب العالمية والفتن الاجتماعية ، ولهذا كانت نهاية الحرب العالمية الثانية دورا من أهم أدوار البحث فى مذهب النشوء بما دعت اليه من بحوث متشعبة فى تنازع البقاء وارادة القوة ، وفى تفسير التاريخ بالعوامل الاقتصادية أو العوامل الفكرية والروحية ، وفى هذه السنة ـ سنة ١٩٤٥ ـ تدفقت الكتب التى تعرض لهذه المباحث بأقلام علماء الطبيعة وعلماء اللاهوت ، ولكن مؤلفات اللاهوتيين فى هذه الفترة لم تكن دون مؤلفات العلماء الطبيعيين فى حجج العلم وشواهد التجربة وصدق النظر فى أقوال الأنصار والخصوم • ولعل أجمعها فيما أطلعنا عليه كتاب « الله والانسان فى الكون »(١) الذى توفر على تأليفه نخبة من الباحثين الدينيين يعرفون وجهات النظر « الكاثوليكية » فى تحقيق كل فلسفة تبحث فى الأصول ، ومنها أصل المادة وأصل العقيدة وأصل الانسان وأصل النظام الاجتماعى وما يتشعب عن هذه الأصول من البحث فى مشكلة الشر وتاريخ الكنيسة ورأس المال والمادية الماركسية وغيرها من مشكلات الانسان التى تتوالى فى كل زمان بأسلوب وعنوان

* * *

وقد استفاد مؤلفو هذه المجموعة من جميع المعارك العلمية التى انتشرت بعد الحرب العالمية الأولى ، ولم تكن متداولة بين الكتاب اللاهوتيين فى الربع الأول من القرن العشرين ، وأمعنوا فى التفصيلات التشريحية التى كانت مجملة فى الفوارق الواسعة بين تركيب القرد وتركيب الانسان ، ولا سيما الفارق المميز للانسان الناطق •• وهو قوام الفصل بين النوعى الآدمى وعامة الأنواع العليا •• فهذا الفارق الواسع فى الملكات العقلية يقابله فارق دقيق فى تكوين الدماغ ، يبين استحالة النطق بغير

---

(١) God, Man and the Universe.

هذا التركيب الانسانى الخاص بدماغ الانسان دون سواه : فالرأس الانسانى يحتوى جميع المناطق التى وصفناها فى رءوس القردة ، ولكنها تتخصص بمناطق أخرى تسمى بالمناطق الثانوية ٠٠ أبرزها تلك المنطقة الخاصة بمراكز الألفاظ الكلامية ، وهى مستحيلة بغير الاتصال الوثيق بأجهزة الكلام من عضلات الوجه والفم والبلعوم مع جهاز التنفس سواء من جانب حركات الحس ومراكز اللمس والسمع بل البصر كذلك ٠٠ فهناك مركز للنطق فى مقدمة مراكز الحركة فى الوجه ، ومراكز بصرية للكلام فى المنطقة الجدارية ، ومراكز سمعية فى الفص الصدغى ، وفقدان مراكز الحركة يستتبع العجز عن الحركات المتقابلة الضرورية للنطق بغير تعطيل عمل اللسان والشفتين ٠٠ كذلك تستتبع آفات البصر عجزا عن قراءة الكلمة المكتوبة ، كما تستتبع آفات السمع عجزاً عن فهم الكلمة الملفوظة وان تيسر سماعها ٠ ويضاف الى هذه المراكز مراكز أخرى خلفية يرى بعضهم أنها مقر لأدق الوظائف السيكولوجية ٠٠ ولا يوجد غير الشمبانزى بين القردة المعاصرة حيوان له مناطق ثانوية ذات امتداد جد ضعيف »

* * *

وعلى هذه الوتيرة المطردة يؤدى هؤلاء العلماء اللاهوتيون أمانة « العلم الطبيعى » لابراز مواضع الشبهة فى أدلة مذهب النشوء وقرائنه التى لم ترتفع الى قوة الدليل ، فهم يوسعون الفارق غاية التوسع المحتمل فى حدود المقررات العلمية ، ولا يدعون فارقا خفيا منها الا وضحوه وكبروه وبلغوا به غاية الشك ، وباعدوا غاية البعد بينه وبين مرجحات اليقين ، ولم يقصروا ذلك على الأدلة أو القرائن التى يستند اليهاالنشوئيون للقول بتحول النوع الانسانى من الأنواع الدنيا ٠٠ بل شملوا به كل دليل وكل قرينة تدعم فروض التحول بين نوع ونوع من الحشرات والأسماك والزواحف والطيور والفقاريات ، ومنها المتسلقات وغير المتسلقات ٠

* * *

وقوبل مذهب النشوء باعتراض شديد بين علماء الطبيعة الذين ناقشوه بالأدلة العلمية ، وطلبوا من دعاته دليلا محسوسا على فعل الانتخاب الطبيعى

في تحول الأنواع ، ولا سيما نوع الانسان ٠٠ فالمعترضون عليه ـ طلبا للأدلة الطبيعية ، لا يقلون عددا ولا اعتراضا عن المعترضين اللاهوتيين ٠ وقد أيده أناس من كبار علماء الطبيعة وتحمسوا لتأييده ، فكان تحمسهم له باسم حرية الرأى أشد من تحمسهم له ايمانا بحقيقته واعترافا بكفاية براهينه ٠ فمن هؤلاء العلماء ـ بل من أشدهم حماسة له ـ توماس هكسلى صديق دارون وصهره ومدره المذهب كله فى حياته ، فانه لم يزعم قط ان أدلة الانتخاب الطبيعي المؤيدة لتحول الأنواع كافية لتقرير هذه النتيجة ، وانما كان يقول ان الانتخاب الطبيعي يفسر لنا جملة من الظواهر والمشاهدات تبقى بغير تفسير لو لم نتقبل مبادىء الانتخاب الطبيعى ، كما عرضها دارون بعد تعديله لآراء لامارك ٠ ويرى العالم البيولوجى الكبير أن نظرية التطور على أساس الانتخاب الطبيعى ، انما هى نظرية منطقية وليست بالنظرية التى تعتمد على شواهد التجربة والأدلة الحسية ٠ قال فى رده على هربرت سبنسر : « اننا لن نستطيع أن نثبت بالمشاهدة عملية الانتخاب الطبيعي » وأن قول هربرت سبنسر « انه اما أن تحدث وراثة للصفات المكتسبة أو لا يحدث تطور على الاطلاق » انما هو دليل منطقى وليس بالدليل التجريبى ، وهو مع ذلك ليس بالدليل الملزم فى قضايا المنطق ، لأن تعليل التطور بغير وراثة الصفات المكتسبة ليس بالغرض المستحيل

* * *

وبقيت هذه العقدة عصية الحل على القائلين بالتحول النوعى الى اليوم ، فلم يتقدم أحد من النشوئيين عند الاحتفال بذكرى كتاب أصل الأنواع (١٩٥٨) بدفع حاسم لشكوك المترددين فى قبول تحول الأنواع ٠ وقد كتب دوبزانسكى Dobzansky أشهر المختصين بالبيولوجية النوعية فصلا عن الأنواع بعد دارون فى مجموعة : « قرن من دارون »(١) فلم يحاول تهوين القضية ، ولكنه زاد أسبابا جديدة لبيان الصعوبات التى تحول دون تلاقى الناسلات والصبغيات فى أرحام أفراد الحيوان المتميزة ،

---

(١) A century of Darwin

وزاد أسبابا أخرى لبيان الصعوبات التى تحـول دون تلاقى الفردين من نوع واحد أخذ فى التباعد والاختلاف ، ومن ذلك نقص الألفة بين الذكور والاناث كلما ابتعدت أشكالها ولو بقيت ناسلاتها وصبغياتها قابلة للتزاوج والانقسام الى تمام تكوين الجنين

* * *

وآخر ما نعلم من أطوار هذه المشكلة أن البحث عن الحلقة المفقودة ، ينتقل الآن من سلسلة الأنواع الى سلسلة الناسلات Genes والصبغيات .. وان الأمل فى الوصول الى هذه الحلقـة من استقصاء تاريخ الأنواع ، وقد ألف الأستاذ برنارد رينش أستاذ علم الحيوان بجامعة ميونستر كتابه عن « التطور فوق مستوى الأنواع » (١) ليشرح هذه الفكرة ويبين ان عزل النوع انما يتم بانعزال ناسلاته وان البحث فى تاريخ تغير الناسلات هو مرجـع البحث الأصيل للوصول الى الحلقة التى تفصل بين ما تقدمها وما تلاها ، وتنشىء شروطا جديدة للنسـل والوراثة فتعتبر بذلك حـدا فاصـلا بين نوعين .. فليس من السهل أن ننتظر تحول الأنواع بعد تطورها وابتعاد أواخرها من أوائلها الموغلة فى القـدم ، ولكننا اذا اكتشـفنا سر تطـور الناسلات وانعزالها بخصائص التوريث دفعة واحدة أو على درجات متقاربة فهاهنا محل الحلقة المفقودة فى سلسلة الأنواع

---

(١) Evolution above the Species Level.

مذهب التطور فى الشرق العربى

من خصائص مذهب دارون — على ما يظهر — أن يشيع على نحو واحد قبل الوقوف على شروحه وبراهينه ، وأن يثير ضروبا متقاربة من الاعتراض فى مواطن العقيدة والثقافة العامة ٠٠ فانه لقى فى الشرق العربى مثل مالقيه من التحريف والاعتراض فى البلاد الأوربية ، وتتابعت أدوار السماع به ثم الاشاعة عنه ثم الرد عليه بين المفكرين وقراء العلم الشرقيين كما تتابعت قبل ذلك بين مفكرى الغرب وقرائه ، وتكرر هذا كله فى الشرق العربى كأنه يحدث للمرة الأولى ، ولم تنقشع شبهاته عن حقائقه الا بعد الثورة المفاجئة التى يظهر — كما أسلفنا — أنها مقدمة لا بد منها وأثر من آثار الصدمة الشعورية المفاجئة لا محيص عنه

وقد تصدى للرد عليه فى الشرق الاسلامى عامة ، والشرق العربى خاصة ، نخبة من المفكرين وقادة الاصلاح والمجتهدين من أتباع جميع الأديان الكتابية ، وناقشوه كما شاع لأول وهلة بين الغربيين من قبل كأنه مذهب يستلزم انكار الخلق ويزعم أن القردة جدود البشر أجمعين ، فكل انسان حديث فهو نسل متأخر لقرد قديم

وقلما يتصور القارىء العصرى ان مذهبا كمذهب التطور يشيع فى الشرق العربى قبل مائة سنة ، ويتصدى للرد عليه عدد من الكتاب كذلك العدد الذى بقيت لنا بعض كتاباته وانطوى أكثرها فى زوايا المطبوعات المهجورة من المصنفات والنشرات الصحفية ٠٠ لأن القارىء العصرى يحسب أن مذهب التطور قد وصل الى الأمم الشرقية وهى فى « جاهلية » لا تبلغها دعوة عالم أو مفكر من أبناء الأمم الأجنبية ، ولكن الواقع أن « جاهلية » القرن التاسع عشر لم تكن فى شرقنا العربى حجاجا دون المذاهب الفكرية التى يطلع عليها الأوربى المثقف فى حينها ، ولم يكن مذهب كمذهب التطور لينعزل فى حيز محدود بين جدران وطن واحد وهو يتحدث عن نسب

الانسان حيثما كان ، فى زمن لم يتحدث فيه الناس عن شيء كما تحدثوا عن مفاخر الأمم بالأصول الانسانية وبالأنساب التى يدعيها السادة لأنفسهم وينكرونها على الرعايا المستعبدين

* * *

وسنختار فى هذا الفصل أمثلة من مناقشة المذهب كما فهمه فى ذلك العصر أصحاب الاجتهاد ورواد الفكر من المسلمين والمسيحيين ، ومنهم أهل السنة والشيعة ، وأتباع الكنائس الشرقية والغربية فى بلاد العالم العربى ، وقد وصلت أصداء الردود التى كتبها المشهورون من أولئك المفكرين الى أطراف البلاد الاسلامية فى الهند والصين

قال السيد جمال الدين الأفغانى من أئمة المصلحين من أهل السنة فى كتاب الرد على الدهريين :

« .. رأس القائلين بهذا القول داروين ، وقد ألف كتابا فى بيان ان الانسان كان قردا ثم عرض له التنقيح والتهذيب فى صورته بالتدريج على تتالى القرون المتطاولة وتأثير الفواعل الطبيعية الخارجية حتى ارتقى الى برزخ أوران أوتان ، ثم ارتقى من تلك الصورة الى أول مراتب الانسان فكان صنف النيمنم وسائر الزنوج ، ومن هناك عرج بعض أفراده الى أفق أعلى وأرفع من أفق الزنجيين فكان الانسان القوقاسى

« وعلى زعم داروين هذا ، يمكن أن يصير البرغوث فيلا بمرور القرون وكر الدهور ، وأن ينقلب الفيل برغوثا كذلك .. فان سئل داروين عن الأشجار القائمة فى غابات الهند والنباتات المتولدة من أزمان بعيدة لا يحدها التاريخ ، الا ظنا ، وأصولها تضرب فى بقعة واحدة وفروعها تذهب فى هواء واحد وعروقها تسقى بماء واحد ، فما السبب فى اختلاف كل منها عن الآخر فى بنيته أو أشكال أوراقه وطوله وقصره وضخامته ورقته وزهره وثمره وطعمه ورائحته وعمره ، فأى فاعل خارجى أثر فيها حتى خالف بينها مع وحدة المكان والماء والهواء ؟ .. أظن لا سبيل الى الجواب سوى العجز عنه ..

« وان قيل له هذه أسماك بحيرة أورال وبحر كسبين تشاركها فى المآكل والمشرب وتسابقها في ميدان واحد ، ترى فيها اختلافا نوعيا وتباينا بعيدا فى الألوان والأشكال والأعمال ـ فما السبب فى هذا التباين والتفاوت فلا أراه يلجأ في الجواب الا الى الحصر ..

« وهكذا لو عرضت عليه الحيوانات المختلفة البنى والصور والقوى والخواص ، وهى تعيش فى منطقة واحدة ولا تسلم حياتها فى سائر المناطق من الحشرات المتباينة فى الخلقة ، المتباعدة فى التركيب ، المتولدة فى بقعة واحدة ، ولا طاقة لها على قطع المسافات البعيدة .. فماذا تكون حجته فى علة اختلافها .. بل اذا قيل له أى هاد هدى تلك الجراثيم فى نقصها وخداجها .. وأى مرشد أرشدها الى استتمام هذه الجوارح والأعضاء الظاهرة والباطنة ووضعها على مقتضى الحكمة وابداع كل منها قوة على حسبه ونوطها بكل قوة فى عضو أداء وظيفته وايفاء عمل حيوى مما عجز الحكماء عن درك سره ، ووقف علماء الفسيولوجيا دون الوصول الى تحديد منافعه ، وكيف صارت الضرورة العمياء معلما لتلك الجراثيم وهاديا خبيرا لطرق جميع الكمالات الصورية والمعنوية .. لا ريب انه يقبع قبوع القنفذ وينتكس بين أمواج الحيرة ، يدفعه ريب ويتلقاه شك الى أبد الآبدين ..

« وكأنى بهذا المسكين وما رماه فى مجاهيل الأوهام ومجاهيل الخرافات الا قرب المشابهة بين القرد والانسان ، وكان ما أخذ به من الشبهة الواهية الهية يشغل بها نفسه عن آلام الحيرة وحسرات العماية

« وانا نورد شيئا مما تمسك به ، فمن ذلك ان الخيل فى سيبيريا وبلاد الروسية أطول وأغزر شعرا من الخيل المولدة فى البلاد العربية ، وانما علة ذلك الضرورة وعدمها . ونقول : ان السبب فيما ذكره هو عين السبب لكثرة النبات وقلته فى بقعة واحدة لوقتين مختلفين حسب كثرة الأمطار وقلتها ووفور المياه ونزورها أوجد علة النحافة ودقة العود فى سكان البلاد الحارة .. والضخامة والسمن فى أهل البلاد الباردة بما يعترى البدن من كثرة التحلل فى الحرارة وقلته فى البرودة ..

« ومن واهياته ما كان يرويه داروين من ان جماعة كانوا يقطعون أذناب كلابهم ، فلما واظبوا على عملهم هذا قرونا صارت الكلاب تولد بلا أذناب ٠٠ كأنه يقول حيث لم تعد للذنب حاجة كفت الطبيعة عن هبته ، وهل صمت اذن هذا المسكين عن سماع خبر العبرانيين والعرب وما يجرونه من الختان ألوفا من السنين ، لا يولد مولود حتى يختن ٠٠ والى الآن لم يولد واحد منهم مختونا الا لاعجاز

« ولما ظهر لجماعة من متأخرى الماديين فساد ماتمسك به أسلافهم ، نبذوا آراءهم وأخذوا طريقا جديدة ٠٠ فقالوا ليس من الممكن أن تكون المادة العارية عن الشعور مصدرا لهذا النظام المتقن والهيئة البديعة والأشكال العجيبة والصور الأنيقة وغير ذلك مما خفى سره وظهر أثره ، ولكن العلة فى نظام الكون علوية وسفلية ٠٠ والموجب لاختلاف الصور والمقدر لأشكالها وأطوارها وما يلزم لبقائها تتركب من ثلاثة أشياء : متيير ، وفورس ، وانتليجانس ، أى مادة وقوة وادراك ، وظنوا أن المادة بما لها من القوة وما يلامسها من الادراك تجلت وتتجلى بهذه الأشكال والهيئات ، وعندما تظهر بصور الأجساد الحية نباتية كانت أو حيوانية تراعى بما يلابسها من الشعور وما يلزم لبقاء الشخص وحفظ النوع ، فتنشىء لها من الأعضاء والآلات ما يفى بأداء الوظائف الشخصية والنوعية مع الالتفات الى الأزمنة والأمكنة والفصول السنوية ٠ هذا أنفس ما وجدوا من حلية لمذهبهم العاطل بعد ما دخلوا ألف جحر وخرجوا من ألف نفق ، وما هو أقرب الى العقل من سائر أوهامهم ولا هو بالمنطبق على سائر أصولهم ، فانهم يرون كسائر المتأخرين ان الأجسام مركبة من الأجزاء الديمقراطيسية – نسبة الى ديمقريطس – ولا ينطبق رأيهم الجديد فى هذا النظام الكونى على رأيهم فى تركيب الأجسام ، وذلك لأنه يلزم عن القول بشعور المادة أن يكون لكل جزء ديمقراطيسى شعور خاص ، كما يلزم أن تكون له قوة خاصة ينفصل بها عن سائر الأجزاء ، اذ لا يمكن قيام العرض الواحد وحدة شخصية بمحلين ، فلا يقوم علم واحد بجزئين ولا بأجزاء ٠٠

« وبعد ذلك فانى سائلهم كيف اطلع كل جزء من أجزاء المادة مع انفصالها على مقاصد سائر الأجزاء ٠ وبأية آلة أفهم كل منها باقيها بما ينويه

من مطلبه ؟ ٠٠ وأى برلمان أو أى سنات ــ مجلس شيوخ ــ عقدت للتشاور فى ابداع هذه المكونات العالية التركيب البديعة التأليف ؟ ٠٠ وانى لهذه الأجزاء أن تعلم وهى فى بيضة العصفور ضرورة ظهورها فى هيئة طير يأكل الحبوب فمن الواجب أن يكون له منقار وحوصلة لحاجته فى حياته اليهما ؟ ٠٠

* * *

وبعد كتابة « الرد على الدهريين » بنحو ثلاثين سنة ، ظهر كتاب نقد « فلسفة دارون » لمؤلفه الشيخ « محمد رضا آل العلامة التقى الأصفهانى » وهو باحث فاضل من علماء الشيعة بكربلاء المعلى ، تحرى النظر فى مجموعة وافية من مراجع مذهب النشوء العربية والافرنجية التى وصلت الى الشرق الاسلامى بعد كتابة « الرد على الدهريين » ولم يقنع بما اطلع عليه من هذه المراجع ، بل أرسل فى طلب غيرها من المراجع المستحدثة ، ولكنه ألف كتابه ولم ينتظر وصولها اليه لولا « الباعث الدينى » كما جاء فى مقدمة الكتاب حيث يقول ان دارون وسائر رؤساء هذه الفلسفة ألفوا كتبا غير موجودة عندنا « وكان الحزم تأخير تصنيف هذا الكتاب الى زمن وصولها لولا الباعث الدينى وظننا انه يوجب علينا المسارعة ، ولا يبعد أن يكون قد منعنا صغرى دليل قد فرغ هؤلاء من اثباته أو كبرى حجة مذكور فى كتبهم برهانها ، وأنا أقترح عليهم أن يخابرونا بما يجدون منه ومن أمثاله لننظر فيه ، ولهم علينا أن نستعمل الانصاف لا المكابرة »

ولم يقصد المؤلف بالباعث الدينى أن يقصر ردوده على مناقشة الآراء التى تخالف الديانة الاسلامية دون سائر الديانات ، ولكنه أراد أن ينقض أدلة الالحاد التى تعارض الايمان بالله وبالعقائد الالهية على اجمالها ، وقال فى كلمته الخاصة بالمؤمنين : « ليعلم أن كتابى هذا موضع للدفاع عن الدين المطلق فى قبال اللادين المحض ، لا للانتصار لدين على دين ٠٠ ولهذا ترانى أدفع ما استطعت عن أديان لا أنتحلها ومذاهب لا أقول بها ، لأن أحد هؤلاء لا يثلب دينا الا وقصده ثلب الأديان عامة ولا يزرى على شريعة الا ليسرى ازراؤه الى الشرائع قاطبة ٠٠ » .

وأنصف المؤلف مذهب النشوء ، فلم يحسبه من مذاهب الالحاد والتعطيل لأن القول بالنشوء لا يقتضى انكار الخالق وانما يتسرب اليه الالحاد من تفسيرات الماديين لمقدماته على الوجه الذى يوافق نتائجهم المقررة عندهم قبل ظهوره ، فيقول المؤلف عن فلسفة النشوء والارتقاء انها « ليست مما ينافى الدين ، اذ الذى يجب علينا اعتقاده هو أن جميع الموجودات بأراضيها وسماواتها وما فيها من صنوف المخلوقات من نباتاتها وحيواناتها ، والبشر على صنوفها واختلاف لغاتها ، صنع اله واحد قادر حكيم قد وسع كل شيء علما وأتقنه صنعا .. خلق جميع الأصناف من جميع الأنواع عن قصد واختيار ، وهذا أمر متفق عليه فى جميع الأديان ، وأما كيفية الخلق وان هذه الأنواع كلها خلقت خلقا مستقلا ، ووجدت من كتم العدم ابتداء ، وانها لم تتغير عما وجدت عليه فى أوائل الخلق ، فهذا أمر لم يرد فيه نص صريح من الكتاب ولا متواتر من السنة ، وسواء كانت آباء الجمل جمالا أو كانت ضفادع تنق فى الماء ، والجد الأعلى للفيل فيلا أو « سنونوا » يطير فى الهواء ، فان أدلة الصنع عليهما فى الحالين ظاهرة ، وفيها على وجود الصانع الحكيم آيات باهرة . ففرحة الملاحدة بهذه الآراء وجعلها أساسا للالحاد من أغرب الأشياء »

ثم يقول المؤلف ان هذه الآراء « ليس فيها الا بيان ترتيب المخلوقات وكيفية الصنع فيها ، ومتى كان أهل الدين ينكرون ذلك ويدعون أن الله تعالى خلق جميع الأشياء فى وقت واحد خلقا مستقلا عن الآخر ؟ .. وهم يرون الله تعالى بلطيف حكمته وبديع صنعته يخلق الثمر من الشجر ، والشجرة من النواة ، ولا يجعل العنب حلوا الا بعد ما يجعله حامضا ، ولا يجعله حامضا الا بعد ما يجعله مرا »

ويستطرد المؤلف الى تلخيص آراء النشوئيين الذين آمنوا بالخالق ، ثم يرجع الى أقوال الأقدمين من الهمج الذين انتسبوا الى القردة كما انتسبوا الى غيرها من الحيوان ، ويرجع بعد ذلك الى أقوال أئمة المسلمين الذين عرفوا الشبه بين الانسان والقرد ، ولم يذهبوا مذهب دارون فى تعويله على وجوه الشبه واعراضه عن وجوه الخلاف فيقول : « ان أئمة المسلمين وعلماءهم ذكروا ما هو أغرب وأقرب » ويستشهد بكتاب التوحيد الذى أملاه الامام

جعفر الصادق على المفضل بن عمر الجعفى ، ومنه على رواية المؤلف : « تأمل خلق القرد وشبهه بالانسان فى كثير من أعضائه ، أعنى الرأس والوجه والمنكبين ، وكذلك أحشاؤه أيضا شبيهة بأحشاء الانسان ، وخص مع ذلك بالذهن والفطنة التى بها يفهم من سائسه ما يومىء اليه ، ويحكى كثيرا مما يرى الانسان يفعله ، حتى أنه ليقرب من خلق الانسان وشمائله .. أن يكون عبرة للانسان نفسه فيعلم أنه من طينة البهائم وسنخها ، اذ كان يقرب من خلقها هذا القرب ، وانه لولا فضيلة فضل بها فى الذهن والعقل والنطق كان كبعض البهائم .. على أن فى جسم القرد فضولا أخرى تفرق بينه وبين الانسان كالخطم والذنب المسدل والشعر المجلل للجسم كله ، وهذا لم يكن مانعا للقرد أن يلحق بالانسان لو أعطى مثل ذهن الانسان وعقله ونطقه »

وينتقل المؤلف الى كلام الدميرى ، اذ يقول عن القرد انه « أشبه الانسان فى غالب حالاته ، فانه يضحك ويطرب ويغنى ويحكى ويتناول الشىء بيده وله أصابع مفصلة الى أنامل وأظافر ، ويقبل التلقين والتعليم ويأنس بالناس ويمشى على رجليه حينا يسيرا ، ولشعر عينيه الأسفل أهداب ، وليس ذلك لشىء من الحيوان سواه فهو كالانسان ، ويأخذ نفسه بالزواج والغيرة على الاناث ، وهما خصلتان من مفاخر الانسان ، فاذا زاد به الشبق استمنى بفيه، وتحمل الانثى أولادها كما تحمل المرأة .. وفيه من قبول التأديب والتعليم مالا يخفى .. »

ويذكر المؤلف أن اخوان الصفاء بلغوا بوصف هذه المشابهة ما لم يبلغه داروين ، حيث قالوا ان القرد « لقرب شكل جسمه من جسد الانسان صارت نفسه تحاكى النفس الانسانية » ثم يعقب على هذه التشبيهات جميعا ، فيقول ان الانسان — كما يشابه القرد فى أشياء — يشابه غيره من الحيوان فى غيرها « بل لعل فى الحيوانات الدنيا من شبه الانسان أقساما لا توجد فى العليا ، فلا يصح الاعتماد على مجرد المشابهة .. وهذا الأستاذ الشهير « كوفييه » يقول ان ادراك القرد ليس أرقى من ادراك الكلب الا قليلا .. واذا سلمنا ان من لوازم المشابهة التحول ، فكيف يتعين تحول الانسان عن

حيوان نشأ عنه القرد ؟ .. فلعل الانسان تحول قردا .. وهذا ما نص عليه الذكر الحكيم »

وبعد مناقشة المؤلف قرينة الشبه الظاهر بين الانسان والقرد ، مضى يناقش القرائن الأخرى التى يستند اليها النشوئيون للقول بتحول الأنواع وتحول النوع الانسانى من بينها ، عن أصله المشترك بينه وبين الفقاريات العليا ، فنهج فى مناقشته على هذا المنهج الذى يستمد الدليل من أصل الجدل المنطقى تارة ومن تجارب الواقع تارة أخرى ، وأفادته مطالعاته المتفرقة لمراجع المذهب .. فلم يخطىء مواضع الحجة الواقعية أحيانا ، مع اعتماده الغالب على منهج النقائض الجدلية . ومن قبيل ذلك انه عمد الى دليل من أقوى أدلة النشوئيين وهو بقاء الأعضاء الأثرية - كالثندوة - فى ذكور الانسان ، فتساءل : « لا أدرى لماذا بقى أثر عار الخنوثة ظاهرا فى الانسان ، ولم يبق فيما هو أدون منه فى سلم الارتقاء كذوات الحافر » ولم ينس أن يستدرك على هذا الاعتراض بما أسنده الى ما قال الشيخ الرئيس فى الشفاء « ان الفيل الذكر له ثدى كما للانسان ، وذكور ذوات الحافر لا ثدى لها الا ما يشبه أمهاتها وينزع اليها كما يعرض مرارا فى الخيل » ..

وجملة رأى المؤلف أن ما يسمى بالأعضاء الأثرية يدخل فى باب « الشذوذات » التى تعرض لتركيب بعض الأحياء ، وهى أجنة فى بطون أمهاتها ، أو تعرض لها خلال نموها ، وعدد من ذلك ما يولد وله أربع أيد ، أو ما يولد وله جوف واحد ورأسان وأربع أقدام ، أو ما يولد وقلبه فى غير موضعه ، ثم قال متسائلا : « فهل يمكن تعليل هذه الشواذ المشنوعة بحيوانات كانت كذلك فى العصور الجيولوجية فانتقلت الى هؤلاء التعساء بناموس « الأتافيسيم » ؟ .. فان لم يمكن ذلك فلتكن الشواذ التى فيها بعض الشبه بالحيوانات من هذا القبيل »

ومنهج المؤلف فى نقد الانتخاب الجنسى - وهو سبب هام من أسباب التطور - كمنهجه فيما تقدم ، فهو يبدأ بالانتخاب الجنسى فى النبات ويسأل : كيف يقع الانتخاب الجنسى بين النباتات التى لا يتوقف تلقيحها على الحشرات والطيور ؟ .. وكيف تميز الحشرات والطيور ما هو جميل وما هو

أجمل ؟ .. ثم يقول : « ان العجماوات قليلة الادراك لما فى المصنوعات الجميلة من الجمال حتى أن بعضهم جعل ذلك أعظم فارق بين الانسان وبينها ، وكان الأستاذ هكسلى ممن يذهب هذا المذهب »

قال : « ثم هب أن هذه الحيوانات الملقحة عذرية الهوى والغرام ، وهائمة بالجمال كعروة بن خزام .. ولكنها لا تريد مغازلتها بل تطلب رزقها المقسوم لها ، وعند أى نبات وجدته لقحته حسنا كان أو قبيحا فلا أدرى بما يعلل هذا الحسن وانتظام فى الفواكه والأثمار وما فيها من الطعم المحبوب والنكهة الطيبة ونحوهما مما لا يوجد الا بعد التلقيح »

ثم أنحى المؤلف على أساس مذهب التحول ، لأنه قائم على افتراض تعدد الأنواع بعد انفرادها أو قلتها ، وليس هذا الافتراض باللازم ضرورة من قياس العقل ولا من نتائج الواقع : « ومن الطريف فى هذا الرأى أنه كما يمكن أن يعلل به القول باتحاد أصول الأنواع أو قلتها ، كذلك يمكن القول بعكس ذلك والتعليل له أيضا ، فيقال ان أصول الأحياء كانت فى بدء الخلق أفرادا متباينة بأقصى ما يكون من التباين وعدم التشابه ، فلم يزل كل حى يخلف نسلا يشبهه بناموس الوراثة ويباينه بناموس المباينة لكن بما يقربه الى فرد آخر ، فلم تزل تلك المباينات مع الأجداد تزيد المشابهات مع سائر الأفراد ، وتنازع البقاء يلاشى الضعيف ، والطبيعة تنتخب القوى حتى صارت التباينات التى قلنا انها مع غير المشابهات ثابتة ، فتألفت منه الأنواع الموجودة .. وله شواهد على مذهب هؤلاء ، فالحية مثلا تعد الآن من جنس الدبابات ولا تجتمع معها فى الأصل بل أصلها من ذوات الأرجل ، وقل مثله فى الحيوانات المنحطة التى يذكرها بخنر وغيره ، فانها الآن تؤلف جنس المنحطات وهى بعيدة فى الأصل منها .. »

قال : « وهذا الاحتمال .. وان لم أجد أحدا قال به فى أصول الأنواع ، ولكنه أحد القولين المشهورين فى أصل اللغات .. وعند العلماء مذهبان شهيران : الأول أن لغات البشر متشابهة ، وهى كلها من أصل واحد .. وهذا الأصل قد تفرع وتنوع فتولدت منه لغات البشر المختلفة ، فما اللغات سوى لهجات من لغة واحدة ولكنها بعدت عن الأصل كثيرا وتغيرت بالزيادة

والنقصان والنحت والحذف حتى بعدت بعضها عن بعض هذا البعد الشاسع ، وتعذر رد بعضها الى بعض لفقد الحلقات الكثيرة من بينها ٠ والمذهب الثانى أنه كانت للغات البشر أصول مختلفة بحسب عدد طوائفها ، وانه مع الزمان اقتربت هذه اللغات بعضها من بعض فتمازجت وتشابهت بتمازج أهلها وتشابههم الخ ٠٠ وعند الكاتب أن المذهب الثانى أقرب الى الصحة وأقدر على حل المشكلات من الأول ٠٠ »

وتابع المؤلف بحثه فى النشوء ، فاستطرد منه الى البحث فى الارتقاء وسأل : « أى معنى لارتقاء ذوات الأربع عن الطيور ، وارتقاء الانسان عن ذوات الأربع ، مع اشتراك الكل فى حصول التغير ؟ » ٠٠

وانتهى المؤلف الى أن المذهب كله ناقص الاسناد ، لا توجد فيه حجة قاطعة غير قرائن الترجيح والتغليب ، ولا غنى له عن المزيد من البحث والتنقيب ، كما قال بعد أكثر من خمسمائة صفحة على هذا المنهج مستندا الى قول فيرسو العالم الألمانى : « انه فى بعض طوائف الناس صفات يشاركهم القرد فيها ، كما فى بروز الفك وفطس الأنف مما يجعل العلاقة قريبة بين تلك الطوائف والقرود حتى يحتمل ارتقاؤها من القرود ، ولكن بين الاحتمال والقطع بونا شاسعا لأن الصفات المشار اليها لا تقوم نوع القرد بل المقوم له خواص أخرى ، وكل قدة من جلده كافية لتمييز نوعه من غيره من الأنواع ، ولا أظن أن واحدا من المشرحين المشهورين يرتاب فى ذلك ، والفرق بين الانسان والقرد واضح جدا حتى أن كل قطعة من الواحد كافية ليستدل منها على النوع المقطوعة منه ٠٠ فالأدلة على النشوء الفعلى قاصرة جدا لا يبنى عليها حكم ، ولا بد من أن يزيدنا البحث والتنقيب للوقوف على أدلة أخرى قوية :٠ »

* * *

ويتبين من مراجعة « المكتبة النشوئية » فى الشرق العربى ان الاهتمام بالمذهب كان على أشده بين أتباع الكنائس الكاثوليكية والكنائس الانجيلية ، لأنها هى الكنائس التى تصدى علماء اللاهوت منها لمناقشة مذهب دارون عند اعلانه فى موطن ظهوره ، وشاركهم فى ذلك علماء الطبيعة المسيحيون

ممن أنكروا المذهب واستندوا في انكاره الى الأدلة العلمية ، وطالبوا النشوئيين بمزيد من الأدلة القاطعة لاثبات نظرياتهم لأنها نظريات تنقض بعض المقررات الدينية ، ولا يكفي في مثل هذه الحالة أن تستند النظرية الى الترجيح والتغليب أو الى الظن والتقدير ، وقد يعزى الى هذا السبب كثرة الدراسات التي تعرضت لمذهب النشوء من الناحية الدينية أو من الناحية العلمية بأقلام فضلاء الكنائس الكاثوليكية والانجيلية من كتاب اللغة العربية، وبخاصة في البلاد التي كان اللاهوتيون يشرفون على معاهد التعليم فيها ويأخذون بزمام ثقافتها وآدابها .

ونحن نختار هنا من الدراسات النشوئية التي كتبت باللغة العربية . ولا نستقصيها لكثرتها وخروج معظمها عن موضوعه .. ولم نجد بينها ما هو أولى من دراسات الأساتذة ابراهيم الحوراني ، والأب جرجس فرج صغير الماروني ، والأسقف خير الله اسطفان ، والدكتور حليم عطية سوريال ومنهم من كتب عن هذا المذهب قبل خمس وسبعين سنة ، وأحدثهم كتابة عنه من تصدى لمناقشته بعد ظهور كتب الدكتور « شبلي شميل » في موضوعه ، وهي مؤيدة للنشوئيين المنكرين للأديان

فالأستاذ ابراهيم حوراني — وهو عالم لغوي مطلع على المباحث العلمية — الف في الرد على مذهب دارون رسالة « مناهج الحكماء في نفي النشوء والارتقاء » ثم اتبعها برسالة « الحق اليقين في الرد على بطل داروين وطبعها ببيروت (سنة ١٨٨٦) ردا على مناقشة الدكتور « شبلي شميل لرسالته الأولى ، فصب حملته الكبرى على موطن الضعف في المذهب وهو افتقاره الى الدليل القاطع وتعويله على الشواهد التي توحي بالرأي ولا تستأصل الشكوك أو تسكت المعترض المطالب بدليل لا يضعفه الاحتمال

* * *

وقد آثر الأستاذ حوراني أن يؤخر رأيه حتى يسوق بين يديه آراء علماء الطبيعة المخالفين لدارون في القول بتحول الانسان عن غيره من الحيوان ، قال « ان العلماء لم يثبتوا مذهب دارون ، وكذلك نفوه وطعنوا

فيه مع علمهم انه بحث فيه عشرين سنة ، ومنهم العلامة ونشل مع انه من أشد الناس ميلا الى القول بالارتقاء بفعل الله ·· ومنهم العلامة ولاس قال ما خلاصته أن الارتقاء بالانتخاب الطبيعى لا يصدق على الانسان ولا بد من القول بخلقه رأسا ·· ومنهم الأستاذ فرخو قال انه يتبين لنا من الواقع أن بين الانسان والقرد فرقا بعيدا ، فلا يمكننا أن نحكم بان الانسان سلالة قرد أو غيره من البهائم ، ولا يحسن أن نتفوه بذلك ·· ومنهم « ميفرت » قال بعد أن نظر فى حقائق كثير من الأحياء أن مذهب دارون لا يمكن تأييده وانه رأى من آراء الصبيان ·· ومنهم العلامة فون بسكوف ، قال بعد أن درس هو وفرخو تشريح المقابلة بين الانسان والقرد أن الفروق بين البشر والقرود أصلى وبعيد جدا ·· ومنهم العلامة أغاسيز ، قال فى رسالة فى أصل الانسان تليت فى ندوة العلم الفكتورية ماخلاصته ان مذهب داروين خطأ علمى باطل فى الواقع ، وأسلوبه ليس من أساليب العلم بشىء ولا طائل تحته ·· ومنهم العلامة هكسلى وهو من اللاأدرية وصديق لداروين ، قال انه بموجب ما لنا من البينات لم يتبرهن قط أن نوعا من النبات أو الحيوان نشأ بالانتخاب الطبيعى أو الانتخاب الصناعى ، ومنهم العلامة تنول وهو كهكسلى قال انه لا ريب فى أن الذين يعتقدون الارتقاء يجهلون أنه نتيجة مقدمات لم يسلم بها ·· ومن المحقق عندى أنه لا بد من تغيير مذهب داروين » ··

ويقسم الأستاذ حورانى أنصار مذهب النشوء الى ثلاث فرق : معطلة ولا أدرية والهية ·· « أما المعطلة فهى التى نفت الخالق سبحانه وقالت بقدم المادة ·· وأما اللاأدرية فهى التى لم تتعرض لنفى الخالق ولا لاثباته ، وأما الالهية فهى التى اعترفت بالواجب تعالى ، وقالت بأنه خالق المادة والحياة وانقسمت هذه الفرقة الى اثنتين ، ظنت احداهما الانسان ابن القرد أو صنوه ومنها داروين ، وقالت الأخرى بأن الله خلق الانسان من البدء انسانا ومنها العلامة ولاس ، وعلماء هذه الفرقة أصحاب النشوء الالهى الذى قالت بامكانه وصرحت بعدم البرهان على وقوعه وبأن عليه اعتراضات لم تدفع دفعا مقنعا »

ثم أورد الأستاذ حورانى احصاء بعض علماء الحفريات عن الأنواع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التى وجدت فى باطن الأرض ، فقال ان ثمانية وعشرين فى المائة منها أنواع لم تتغير ، وسبعة فى المائة أنواع مهاجرة ، وخمسة وستين فى المائة لا سلف لها . وأما الأنواع التى نشأت بالتغير أو الأنواع الجديدة ، فلا وجود لها فى شيء من بقايا الحفريات

ويرد الأستاذ حورانى على استدلال النشوئيين بتشابه الأجنة بين الانسان وبعض الحيوان ، فيقول ان علة هذا التشابه « بساطة التكوين وقصر النظر .. بدليل أن التباين يعظم على توالى اقترابها من كمال التكوين ، فلا ينشأ من بيوض الانسان أو أجنته سوى أناس ، ولا ينشأ من بذرة اللوز الا لوزة »

ويحيل النشوئيين الى بحث التيرانولوجيا — أى المشوهات — لتفسير الأعضاء الأثرية التى تثبت بعد ولادة الجنين ، ومن أمثلتها « الأعنش » أى من له ست أصابع وهو من أبسط الأمثلة ، والأشوه المزدوج كهيلين وجوديث وهما الأختان الهنغاريتان المشهورتان ، كانتا ملتصقتين بالمتنين والأفخاذ والأحقاء ولدتا سنة ١٧٠١ وعاشتا اثنتين وعشرين سنة وكانتا مختلفتى السجايا والأخلاق

وقال عن الانتخاب الطبيعى انه لا يمكن « أن يكون رأس الارتقاء الداروينى لأن الطبيعة انما تؤثر فى الموجود ، وليس لها أن توجد المعدوم ، فيمكنها أن تعمى العيون .. ولكنها لا تستطيع أن توجد البصر « ويقتضى مذهب داروين أن لا تجتمع الأنواع الدنيا والعليا بل تتعاقب وتسبق الأولى الثانية أبدا ، ولكن ذلك الاجتماع ثبت فى المنقرضات والأحياء »

وأضعف ما فى ردود الأستاذ حورانى قوله عن قدم الانسان ، اذ يقتضى مذهب داروين أن يكون الانسان قديما جدا « ولكنه تبين لأشهر العلماء وأكابرهم من النشوئيين وغيرهم انه أحدث الأحياء وانه كان منذ بضعة آلاف سنة ، وأثبت العلامة دوسون أنه كان فى ثانى العصر الجليدى وهو المعروف بالأكثر أحدثية ، وفصل ذلك فى خطبة له فى الانسان قبل زمن التاريخ .. وقال الدكتور هويدن : نظرت أربع فرق مستقلة من الجيولوجيين

في زمن نشوء الانسان فاتفقت على انه نشأ منذ ما بين ستة آلاف وسبعة آلاف سنة ٠٠ »

* * *

وفي ابان احتدام المناقشة بين منكري المذهب ومؤيديه ، أصدر الأب جرجس فرج صغير الماروني مدرس الفلسفة بالمدرسة اللبنانية في قرنة شهوان (١٨٩٠) كتابا نهج فيه منهج الحوار بين خصمين ، سمى أحدهما بالانسان القردي وسمى الآخر بالانسان الآدمي ، وأدار الحجاج بينهما على هذا المثال ، مع اختصار بعض التفصيلات :

الآدمي ــ أين تجدون أشكال الانتقال من يد قرد الى رجل انسان ٠٠ أفهل عثر على ذلك أحد علمائكم ، فان لم تعثروا على شيء من ذلك ٠٠٠ فالانسان القردي لا يكون له وجود ٠٠

القردي ــ ان المباحث البالونتولوجية « الحفرية » والحق يقال لم تأت بما يعرب عن تسلسل بين الانسان والقرد أو أحد أنواع الحيوانات ٠٠ على أن أساتذتنا قد أجمعوا على انه من المحتمل ان من الحيوانات التي على شكل حصان البحر ما يتحول الى حيوان قوائمه على شكل قوائم الخنزير ، وان منها ما قد يتحول الى الماعز ومنها الى الخرفان ٠٠الخ

الآدمي ــ فان كان ذلك من طوالع المحتمل لا من أمارات اليقين ، فأين العلم الحقيقي الذي تعولون عليه ٠٠ ؟

القردي ــ نعم ٠٠ اننا لم نجد الى الآن أثرا الى الانسان القردي ، غير أن العلم لم ينه قضناءه

الآدمي ــ ولكن ماذا يكون هذا العلم الذي يقضي بخلاف الواقع ٠٠ فاننا نرى الأنواع لا تتغير عن ذاتها وان كثرت فيها الأنســال ، فان قلت لا فارق بين النوع والنسل أسكتتك العلائم الفزيولوجية ونحن نحصرها في أمر وهو النتاج

القردى ــ ومن يمكنه أن يرسم تخوم النوع والعلماء لا يكادون يتفقون على شيء منه ؟ ..

الآدمى ــ أو يكون الجهل فى أصل شىء أو فى علته حجة فى انكار وجوده ، أفنفقه ما للعلائم الجوية والأرضية من الأسباب والعلائق .. ونحن مع ذلك لا ننكر وجودها .. انا نعلم ان المولود من قران الفرس والحمار لا يكون الا عاقرا ، فنقول : لا بد من فرق نوعى فى مولده ، .. أفجهلنا فى رسم حدوده يمكننا من انكار وجوده ..

القردى ــ ... الا أنى أعرف من أصحابكم من يقول بامكانيــة مذهب التحول ..

الآدمى ــ لا نجهل أن البعض من أصحاب الايمان يحبون أن يوفقــوا بين التحول والايمان ، فيقولون : ان الله سبحانه قد جبل آدم من تراب قد عركه كثير من المولدين من الخازباز الى آخر حيوان ذى أربع قــوائم ، فأخذ الله هذا الحيوان الاخيرة من السلسلة المتحولة وهو القرد ونفخ فيه النفس البشرية ، وعليه فيكون آدم نتاج عمل محول وخالق معا . وأبين لك فى غير مفاوضة كيف يعمه هؤلاء فى الضلال .. ومن العجيب كيف لايفقهون ان هذا المذهب انما تنفيه الفلسفة نفسها كما سبق بيانه ..

القردى ــ أو هل تنفيه الفلسفة لو افترضنا تداخل الله عند انتقال كل من الأنواع كما تدخل عند خلق الانسان ؟ ..

الآدمى ــ اذا افترضت تداخل الله سبحانه كان لابد من تعويض نفس بنفس .. أما هذا التعويض فيتم اما بوجود القرد الأول الذى تكون أو فى بداية الانتشار ، وكلا الافتراضين لا يتحقق . أما الأول فلأنه يفترض قتل الحى ثم اقامته أو ملاشاته ثم اقامة آخر بدله

القردى ــ قرأت فى كتب بعض أصحاب مذهب التحول ان التمايز انما ينتج من عمل صدفة يدور عليها الانتخاب الطبيعى ، فما قولك فيه ؟ ..

الآدمى ــ قد سبقهم الى مثل هذا القول غيرهم من الملحدين الذين يؤيدون المادة ٠٠ ونحن نوقفك على أدلة تذكر ما يعولون عليه من فعل لصدفة فى تمايز الكائنات

ان الصدفة لا تقع الا فى الأشياء التى يمكن لها أن تكون على خلاف ما هى ٠٠ فقد يمكن للطاولة التى يصنعها النجار أن تكون مربعة أو مدورة ، أما الأشياء التى هى من الضرورة ، ودائما ، فلا يمكن لها أن تحدث بطريق الاتفاق ٠ ولكن من الأشياء مالا يمكن له أن يكون على خلاف ما هو ، مثل الجواهر البسيطة وذوات الأشياء وحقائقها ومثل الأعمال التى تصدر عن فاعل لا يصادمه فى فعله شيء ، كالجاذبية مع قطع النظر عن كل مانع يصادمها فى فعلها ، وعليه فان هذه الأشياء لا تقع عليها الصدفة ٠٠ أتظن ان للصدفة أن تجعل الكلب حمارا والحمار كلبا ٠٠

٠٠ ونحن نشاهد أن الحركات والأفعال انما تلى تمايز الأشياء ولا تسبقها ٠٠ أو لا ترى ان السفينة لا تتحرك ولا تجرى قبل أن يجعل كل من آلاتها فى موضعه على هيئة من التمايز لا ينبغى أن يشوبه أدنى خلل »

* * *

ويفضى هذا الحوار الى عجز « الانسان القردى » عن الجواب فيتبعه صاحب الكتاب بمناقشة مطولة لمذاهب الماديين يستند فيها الى حجج الفلسفة اللاهوتية ، ويقرر فيها أن العلوم الطبيعية وحدها لا تكفى لتحقيق النظر فى أصل الوجود من حيث هو موجود ، ولهذا سمى البحث عن أصل الوجود بما بعد الطبيعة لأنه « ينبغى أن يقرأ هذا العلم بعد الوقوف على علم الطبيعيات ، والمراد به علم يبحث عن الوجود من حيث هو موجود ، أى عن ذات الأشياء بقطع النظر عن معنياتها وأحوالها الخاصة التى ينحاز بها الشيء عما سواه ، وعلم يبحث به عن الأسباب الأخيرة للوجود والمعرفة ، فان كليهما لا ينفصلان ، لأن مبادىء المعرفة والعلم العالية المطلقة انما هى التى تمكننا من الوقوف على أسباب الوجود ٠٠ ولذلك فانه يكون علم العلوم »

* * *

ولا نعلم ان كتابا فى هذا الموضوع بقلم باحث مسيحى من كتاب اللغة العربية ظهر قبل كتاب « صفوة علم اليقين فى حقيقة مذهب داروين » لمؤلفه الأسقف خير الله اسطفان ناظر مدرسة عين ورقة الذى ألفه بعد الكتاب السابق بأكثر من ثلاثين سنة (١٩٢٩) أعيد فى خلالها طبع مؤلفات الدكتور شبلى شميل فى هذا المذهب ، ونشط البحث بين الأوربيين فى نظريات النشوء عامة على أثر البحوث المتضاربة فى نظريات تنازع البقاء وارادة القوة وما اليها من « الفلسفات » التى أثارتها الحرب العالمية الأولى ومشاكل العلم والاجتماع فيما بين الحربين العالميتين . وقد أشار الأسقف الى الأطوار التى مرت بمذهب دارون منذ اعلانه الى تلك السنة ، فنقل كلاما عن العالم الألمانى ادوارد فون هارتمان قال فيه انه « فى سنة ١٨٦٠ كانت مقاومة الأفذاذ من العلماء الشيوخ لنظرية داروين شديدة ، وفى سنة السبعين أخذت هذه النظرية تنتشر فى كل صقع تقريبا ، وفى سنة الثمانين كان نفوذ المذهب الداروينى عاما ومطلقا حتى كاد يبلغ بسموه سمت الرأس ، وفى سنة التسعين بدأت بعض الشكوك تعتلى وبعض المقاومات تظهر ، وعلامة التصدع والانهدام تبينت واتضحت ، وفى العقد الأول من الجيل العشرين بدأت أيام المذهب أن تكون معدودة ، وكان بين مضاديه وداحضى حججه من العلماء ايمر ، وغوستاف وولف ، ودى فريز Vrise وفون والشتين Wallstin وفليشمان Flischmann ورينك Reink وغيرهم كثيرون » .

وبعد هذا التمهيد عرض الأسقف للبحث من الناحية اللاهوتية فقال : « ان البحث العلمى عندما يأتى بنتائج واقعية أكيدة تجتمع ساعتئذ كلمة العالم المسيحى وغير المسيحى عليها على غير تصاد ولا تناف ، وهذا هو عين الصواب والرشد لأن الحق لا يغاير الحق ، ولا يتساهل لاهوتيو الكنيسة الكاثوليكية كما انهم لا يسلمون لأخصامهم القائلين بالمذهب الداروينى المحض ، وهذا بعض الواجب عليهم بالنظر الى ما يناقض حقائق الوحى المقدس ، غير انهم متى رأوا من بعض الوجوه اتفاقا بين اللاهوت ونظرية النشوء كانوا من هذا القبيل لينى الجانب لطفاء هينين .. فمن هؤلاء العلماء الاهوناء المتئدين الأب وسمان الجرمنى الشهير بعلم طبائع الحشرات الميال الى الاعتقاد بنظرية نشوء الأنواع المعتدلة ، القائل بأن أنواعا كثيرة من النبات

والحيوان نشأت من أنواع طبيعية أصلية أبدعها رب الطبيعة الخلاق ، كالأرانب الأليفة والبرية والحمار والفرس والكلب والثعلب الخ .. فانك بهذا ترى أن مبدأ الخلق والابداع لبث غير ممسوس البتة ، فاذا حل تصور اشتقاق الأنواع الجديد بالتحدر والتسلسل محل التصور القديم لثبات الأنواع على عدم التغير كانت حكمة البارى فى الجديد أمجد منها بالقديم ، من وجه أنه عز نواله وجل جلاله وضع فى الطبيعة الآلية قوى تؤهلها لتحذير ونشر صور جديدة لموجودات حية بدون افتقار الى توسط أو تدخل قدرة الله المبتدعة للكون ونواحيه والمعتنية بحفظها وادارتها . وحينما تتصادم نظرية ما مع التعليم المسيحى تصادما واضحا غير قابل للشك .. يجب وقتئذ رفض هاتيك النظرية وطرحها مطلقا ، وبناء على هذا كل من قال بمبدأ نشوئى ينفى به الخلقة قطعا بدون رجعة يجب أن يضرب بقوله ومبدئه عرض الحائط ، وكل نظرية تنكر خلقة العالم بستة أيام يراد بها ستة أدوار أو ست مدد يجب أن تطرح ، وكل قول بأدوار طويلة مرت وانقضت بين تكوين الأرض وخلق الانسان هو قول معقول لهذا هو مقبول .. لأنه ليس فى الكتاب الكريم ما ينافيه أو ينقضه . أما بالنظر الى أصل الانسان ، فالكاثوليك مقيدون بنص سفر التكوين ، ويمكنهم التوسع بتفسير كلمة الكتاب من جهة الجسد .. فقد ارتأى بعضهم ان المقصود بقوله جبله من تراب الأرض انه قضى ورسم الصورة وهيأ الهيئة وليس كما يجبل الفاخورى الجرة والابريق ، وأما من جهة النفس فالتعليم الكاثوليكى والفلسفة الصادقة الرصينة يلزماننا أن نقف عند الاعتقاد الراهن الثابت بأن أنفسنا روحية بحتة وبذا تفترق وتمتاز جوهريا عن نفس الحيوان »

* * *

وتلى هذه المقدمة براهين الأسقف التى بنى عليها رفض تحول الانسان عن غيره من الحيوان ، وهى تتلخص فى المطالبة بالحلقة المفقودة ، وهى « لم ير لها أثر أو عين بين الأحياء ولا بين الأموات ، لا فى الأحافير ولا فى المتحجرات .. »

ثم سأل الأسقف : « اذا ثبت مذهب النشوء هل يناقض الدين ؟ »

فكان جـوابه : « اننا نجيب مـع العلمـاء النزيهين المجردين من الأغراض والأهواء بالنفى ، وانه لا يضاد مقاصد الخالق وغاياته » واستشهد ببحث للدكتور مكوشى يقول فيه : « ان النشـوء بجميع مذاهبه لا ينفى مقاصد وغايات البارىء عز وجل ، فالأستاذ هكسـلى النشـوئى الكبير والمـادى المعروف بين الناس النبهاء سلم بكون النشوء لا يلزم منه نفى مقاصد الله ، وان ترتب أو توقف مخلوق على آخر أو عملهما معا لاتمام مقصـد جيد أو اكمال غـاية حسنة كالحياة للنبات وطيب العيش للانسـان والحيوان لهو دليل واضح عند كبار العلماء على مقاصد الله ٠٠ فالذى يصنع آلة تعمل هى آلة مثلها ، لهو أحذق وأقدر وأحكم من الذى يصنع آلة تقتصر على العمل المقصود منها ولا تتعداه ٠٠ »

* * *

وفى سنة (١٩٣٧) ألف الدكتور حليم عطية سـوريال الطبيب الأول لسجن أسيوط كتاب « تصدع مذهب داروين والاثبات العلمى لعقيدة الخالق » نبه فيه الى خطأ يسبق الى بعض الأذهان ، وهو اعتقادهم أن انكـار مذهب النشوء مقصور على رجال الدين ، فان من كبار العلماء الطبيعيين من يرفضـه كالأستاذ فيالتون Vialleton عميد كلية الطب بجامعة مونبليه وأستاذ علم الأجنة فيها ، والأستاذ كاترفاج مدير متحف التـاريخ الطبيعى بباريس وهو القائل « اننا لا نعلم كيف تكونت الأنواع الحية ٠٠ اننا نعلم فقط انهـا غير قابلة للتحول واننا على يقـين بأن داروين ولامارك لم يكتشفا النـاموس الحقيقى لطريقة تكوينها » ٠

ثم سرد الدكتور سوريال أسماء بعض الأساطين من علماء الطبيعـة المعارضين لمذهب التحول ، وخلاصة رأيهم فى الاختلاف بين الانواع « ان جميع تلك العوامل لا يمكنها أن تغير نوعا من الأنواع الحيـة الى نوع آخر وكـل التغييرات التى يمكنها أن تحدثها سطحية لا تمس التركيب الجوهرى للحيوان أو النبات وبعضها باثولوجية ــ مرضية ــ تقود الى انقراض النوع ، ولقد قال العالم الايطالى روزا ان الاختبار الاصطناعى الذى جربه بنو الانسان فى خلال الستين سنة الماضية دليل عظيم ضد نظرية داروين ٠٠ »

ويقرر الدكتور أن الحلقة المفقودة ناقصة بين طبقات الأحيـاء ، وليست

بالناقصة بين الانسان وما دونه فحسب » فلا توجد حلقـــات بين الحيوانات الأولية ذات الخلية الوحيدة والحيوانات ذوات الخـــلايا المتعـــددة ، ولا بين الحيوانات الرخوة ولا بين المفصلية ، ولا بين الحيوانات اللافقـرية والفقرية ، ولا بين الأسماك والحيوانات البرمائية ، ولا بين الأخيرة والزحافات والطيور ، ولا بين الزحافات والحيوانات الثديية ، وقد ذكرتيـــا على ترتيب ظهورها فى العصور الجيولوجية .. »

ثم قال بعد الاستشهاد بكثير من أمثال هذه الملاحظات العلميه : « ان هناك مسألة منطقية بسيطة .. وهى معرفة كيف استطـــاع المخلـوق الذى يعتبره التحوليون الحلقة المفقودة بين القرد والانسان أن يعيش بين الحيوانات الضارية التى تحيط به .. فان أصحاب نظرية النشوء يقولون ان هذا المخلوق كان أضعف عقلا من الانسان الحالى .. فكيف يمكن لمخلـــوق ضعيف الجسم وضعيف العقل أن يعيش وحوله الأسد والفيـــل والدب والنمر وغيرها من الحيوانات المفترسة ؟ ... »

ويعتبر نقاد مذهب داروين أن مشكلة الحلقة المفقودة بين الأنواع ــ كما شرحها الدكتور سوريال ــ هى مشكلة المشاكل فى تمحيص هـــذا المذهب الى اليوم ، وانها لا تزال على قوتها واقناعها بعد انقضاء مائة سنة على ظهـــور كتاب أصل الأنواع واستئناف التعليق عليه بين خصوم الـــمذهب وأنصاره الذين استجابوا غاية ما استطاعوا لحل هذه المشكلة عنـــد الاحتفال بذكرى مرور القرن على ظهور ذلك الكتاب

* * *

ونحن نكتفى بالردود المتقدمة لأنها تمثل مناحى التفكير عند رجـــال الدين فى مناقشة مذهب النشوء ، وهى :

١ ــ منحى الجزم بالرفض والحكم ببطلان المذهب فى جملته وتفصيله لأنه مناقض للدين غير مستند الى أدلة قاطعة

٢ ــ منحى الرفض لنقص الأدلة مع تعليق النتيجة بانتظار الأدلة المقنعة والايمان بأنه ــ اذا ثبت ــ لا يقضى بتكذيب العقيدة الدينية ، والعقلية ، فى الخالق ..

٣ ــ منحى القول بأن الأدلة العلمية التى يوردها العلماء لنفيه والتشكيك فيه أرجح من الادلة العلمية التى يوردونها على تأييده ..

* * *

اما أنصار مذهب النشوء فى الشرق العربى فقد كان أشهرهم وأفصحهم بيانا الدكتور شبلى شميل ، وقد كاد أن يسبق دارون وأصحابه الى الأخذ بالنظريات النشوئية على علاتها ، وقد سبق الماديين الغربيين الى نفى كل صفة روحية ، أو غيبية فى الانسان ، اذ قال فى مقدمة ترجمته لشرح بخنر على مذهب دارون « ان الانسان على رأى هذا المذهب طبيعى هو وكل ما فيه مكتسب من الطبيعة . وهذه الحقيقة لم يبق سبيل للريب فيها اليوم ، ولو أصر على انكارها من لا يزال مفعول التعاليم القديمة راسخا فى ذهنه رسوخ النقش فى الحجر .. فالانسان يتصل اتصالا شديدا بعالم الحس والشهادة ، وليس فى تركيبه شىء من المواد والقوى يدل على اتصاله بعالم الروح والغيب ، فان جميع العناصر المؤلف منها موجودة فى الطبيعة وجميع القوى التى فيه تعمل على حكم قوى الطبيعة .. فهو كالحيوان فزيولوجيا ، وكالجماد كيماويا ، والفرق بينه وبينها فقط بالكمية لا الكيفية والصورة لا الماهية والعرض لا الجوهر .. فالانسان يحس ، والحيوان يحس ، والانسان يدرك ، والحيوان يدرك ، ونواميس التغذية واحدة فيهما .. غير أن الانسان يدرك أكثر من الحيوان لأنه أكمل تركيبا من الحيوان » ..

وكانت ردود الدكتور شبلى شميل على مناقشته تكرارا لردود دارون ويخنر وغيرهما من القائلين بتحول الأنواع ، وفحواها :

١ ــ ان التباينات بين الأنواع لا تزيد على التباينات بين أفراد النوع الواحد الا بالوراثة ، وهذه أثر ثابت لا يحكم عليه بالفترة المعلومة من تاريخ الانسان لأنها ثبتت بعد انقضاء مئات الملايين من السنين ..

٢ ــ وان انصاف الأنواع ليس من شأنها أن تعيش وتنقل ميراثها الى زمن طويل ، لأن التوريث مرتبط بتمام الجهاز المميز للنوع وهو لا يتم فى انصاف الأنواع ، ولكن قد يدل عليه التناسل بين بعض الحيوانات كالخيل والحمير أو الكلاب والذئاب ، وقد يدل عليه « اكتشاف الطير العجيب ــ

الاركوبتركوس ــ الذى وصل بين طائفتين من الحيوان منفصل بعضهما عن بعض انفصالا تاما وهما الطيور والحشرات » ..

٣ ــ ان العلماء يخطئون في وضع حدود الأنواع ، وقد ذكر دارون « ان النباتى الانجليزى وستن يذكر ١٨٢ نباتا انجليزيا عدها غيره أنواعا مع أنها تباينات ، وقد قال هوكر فى هذا المعنى ما نصه : ان النباتيين يعدون الآن من ٨٠٠٠ الى ١٥٠٠٠ نوع من النبات ، فالنوع اذن غير محدود .. »

٤ ــ ان التحولات لا ينبغي أن يبحث عنها فى الأنواع الحاضرة ، لأن كلا منها تطور عن أنواع سابقة له فى سلسلة هى التى كان يمكن أن يجرى بينها التحول فى أوانه ، ولكن الأنواع الحاضرة تباعدت عن أصولها فابتعدت الأشباه المتحولة فيما بينها ..

ولا ننسى ــ عند تقدير عوامل العناد بين الطرفين ــ ان الدكتور شبلى شميل انما يواجه بهذه الخصومة اللدود سلطان رجال الدين ، فانساق من هذه الخصومة الى خصومة الأديان ، ورأى كما قال فى مقدمة الترجمة أن « الملل والديانات أصلها واحد ، وقيامها فى الدنيا انما هو لعاملين : حب الرئاسة فى الرؤساء ، وارتياح المرءوس الى حب البقاء ، وكلاهما لما فى الانسان من محبة الذات .. فسطا دهاة الناس على ساذجى العقول منهم ، فساد البعض وسيد على البعض الآخر ، وتم بذلك غرض الفريقين »

وخاطب رؤساء الدين قبل ختام المقدمة قائلا : « سوف يتولى ما بقى ، ولربما كان حظكم من ذلك فى الشرق أطول جدا لولا أن الغرب باسط فوقه يديه .. ولا تعللوا النفس بما فى التاريخ من سقوط بعض الأمم .. ألقت اليكم مقاليد أحكامها وسلمتكم زمام أمورها ، فانه ــ وان حصل ذلك ــ الا أنكم لن تبلغوا أمانيكم لتوفر معدات التقدم فى العلوم والصنائع وانتشار ذلك بواسطة الطباعة »

* * *

وبعد ، فهذه شذرات من التعليقات الدينية والعلمية التى قوبل بها مذهب التطور فى الغرب وفى بلاد الشرق العربى ، نحسب أننا أتينا فيها

على كل رأى من آراء الباحثين الدينيين والعلميين فى هـذا المذهب ، وان الكتب التى اخترناها للاقتباس منها تمثل جوانب التفكير جميعا فى هـذا الموضوع ..

وقد مضى أكثر من سبعين سنة على ظهور أقدم الكتب التى ذكرناها فى هذه العجالة ، ومضى نحو ثلاثين سنة على أحدثها .. فاذا أردنا أن نعود اليها لنحكم عليها حكم الزمن الممحص للآراء ، فالذى نراه اليوم أن الدينيين قد وقفوا الموقف المنتظر منهم فى معارضة النشوئيين الماديين ، فليس من المنتظر أن يقابل انكار الدين بغير الانكار من أهل الدين . وقد أصاب العلامة الشيخ محمد رضا حين قال انه يدفع الشبهات عن العقيدة الالهية فى كل ملة ، ولا يقصر دفاعه على عقيدة الاسلام .

* * *

ولكن الكتاب الذين تناولوا هذا الموضوع من الوجهة الدينية قد أخطأوا - دينيا وعلميا - فى انكارهم باسم الـدين أمورا لا تزال قيد البحث بين الاثبات والنفى ، ويجوز أن تسفر بحوث الغد عن اثباتها بما يقطع الشك فيها .. كما يجوز أن ينفيها بما يزيل مواضع الخـلاف فيما بين عقـائد الدين وحقائق العلوم . وقد كان لبعضهم عذره لقلـة المعلومات الصحيحـة التى وصلت اليهم عن مذهب داروين ومذاهب التطور على العموم ، وكان لبعضهم عذر مثل هذا العذر قد يسوغ اندفاعهم الى درء الخطر عن العقائد الالهية يوم تعجل ثراثرة التقليد ، فهجموا على المذهب على غير علم به كعادتهم فى الهجوم على كل جديد مستغرب ، وانتحلوه للثرثرة بأحاديث الالحاد والمروق .. فكان تعجلهم هذا داعيا الى مقابلتهم بتعجل مثله من الدينيين

بيد أنه - ولا ريب - تعجل وخيم العاقبة ، قد ظهرت عواقبه الوخيمة مرة بعد مرة منذ ابتدأ العلم الحديث فى نشر كشـوفه المتواليـة ، ووجب الاتعاظ بعواقب التصدى للمباحث العلميـة وهى فى معرض التحقيق بين الاثبات والنفى أو التغليب والاستضعاف ، وقد علم رجال الدين فى الغرب ماذا كان من أثر تحريمهم للقول بدوران الأرض حول الشمس ، وايجـابهم تعليم النشء أن الشمس تدور حول الأرض .. كأن وجود الخالق جل وعـلا مرتبط بدوران هذه أو تلك ، وكل فى فلك يسبحون ..

لقد كان فى ذلك التعجل من رجال الدين عظة لهم تنهاهم أن يعيدوا مثل هـــذه الغلطة فى التصـــدى للمذاهب العلميـــة التى لم ينقطع الشـــك فى ثبوتها أو بطلانها ، وقد ينقطع الشـــك غدا بما يثبت على منكريهـــا أنهم كانوا مخطئين فى فهم الدين والعلم على السواء •• فان زلزال المـــادية الذى اضطرب له الغرب اضطرابه العنيف لم يكن له حجـــة على العقائد الالهيـــة أقوى من هذه الحجة على الدين ، كما تصوره المتعجلون من « المؤمنين » عـــلى غير يقين ••

* * *

ويشبه هذا الخطأ المنكر خطأ آخر لم ينفرد به الدينيون ، بل شاركهم فيه زمرة من العلماء لم يحسنوا التمييز بين قضايا العلم وقضـــايا الحقوق « المدنية » أو الجنائية فى المحاكم ودواوين التشريع •• فصاحب الدعـــوى فى المحكمة أو الديوان مطالب باثبات دعواه لأنها مصلحته الخاصة ، وفيها ــ اذا لم تثبت ــ اضرار بمصالح الآخرين • ولكن الدعوى العلمية ليست كذلك ، ولا يصح أن يناط أمر اثباتها بمن يدعيها وحـــده ، وهى مصلحة النـــاس أجمعين ، ومن ينكرها بغير حق يضر بالناس أجمعين ••

وقد أفرط النقاد جدا فى التشبث بمسألة الأنـــواع الوســـطى ، ولم يصطنعوا الأناة ليدركوا ما فى هذه الحجة من الضعف والعنت ويعلمـــوا أن التشبث بها الى هذا الحد احراج للخصم من قبيل احراج الخصوم المتنازعين على دعاوى المحاكم والدواوين

فكيف يخطر على بال الناقد المخلص أن الأنواع الوســـطى تبقى لهـــا ذرية ، مع العلم بأن الوراثة لا تتم قبل استكمال خصـــائص النوع ؟ وكيف يفوتهم أن يلمحوا هذه الحقيقة ويرتبوا عليها ما ينبغى أن يترتب عليهـــا من التريث والانتظار ، وهم يرون اليوم أمثلـــة بارزة من توقف النســـل بين الخيل والحمير أو بين الذئاب والكلاب ؟ •• واذا كان القائل بالنشوء يعجز عن اقامة الدليل على تناسل النوع المتوسط ، فكيف يحال هذا العجز اليـــه ولا يحال الى الواقع الذى لا حيلة له فيه ؟ •• ان كثيرا من الاحياء الباقيـــة الى اليوم لم يبق منها أثر يدل على وجودها فى عصور الحفائر المطمورة بين طبقات

الأرض ، فاذا جاز هذا فى أمر الأنواع التى بقيت ولا شك فى بقائها الى اليوم فكيف نستكثره على انصاف الأنواع التى لم تستكمل خصائص النسل والتوريث ؟

فليس من الرأى السليم ــ دينا ولا علما ــ أن يرتبط رفض النشوء بعجز النشوئيين عن ابقاء أنواع وسطى من الحيوان غير قابلة بطبيعتها للبقاء والتوريث • وقد يحدث غدا أن يوجد الدليل الممكن على النوع المتوسط ، أو توجد الوسيلة الممكنة للتلقيح بين الأنواع المتقاربة ، فتعود الينا قصة دوران الأرض ، ودوران الشمس يخطر على الدين والعلم لا داعية له غير التعجل والعنت فى الخصومة الفكرية ، وانه لعنت معيب يجوز فى خصومات المال ولكنه يحرم أشد الحرمان فى خصومات الأفكار والآراء ••

* * *

وفى كتاب تدور موضوعاته على حكم القرآن الكريم فى شأن الانسان يعنينا هنا أن نسأل : هل يصيب الذين يحرمون باسم الاسلام مذهب النشوئيين المؤمنين بالخالق ؟

وليس يخالجنا كثير من الشك ولا قليل فى خلو كتاب الاسلام مما يوجب القول بتحريم هذا المذهب •• فقد يثبت غدا ان المذهب صحيح كله أو باطل كله ، أو يثبت أن بعضه صحيح وبعضه باطل ، ولكن كتاب الاسلام لا يصد عن سبيل العلم فى أية وجهة من هذه الوجهات ، كما سنبينه فى موضعه من الفصل الأخير •

الدين ومذهب داروين

نعود فنقرر في هذا الفصل ما ختمنا به الفصل السابق ، فنقول ان مذهب التطور أيا كان تفسير القائلين به لنشأة الأنواع ، ليس فيه ما يصح أن يستند اليه الملحدون لابطال الدين أو انكار الخالق أو القول بخلو الكون من دلائل القصد والتدبير

وقد نسب القول بنشأة الأنواع من أثر الانتخاب الطبيعي والانتخاب الجنسي الى عالمين كبيرين من علماء القرن التاسع عشر : هما شارلز دارون والفريد رسل ولاس ، ولم يكن أحد منهما منكرا لوجود الله

فأولهما – شارلز دارون – كان يقول انه يستريح الى الايمان بوجود الاله في هذا الكون الكبير ، ولكنه يرى أن شعوره هذا لا يلزم أحدا أن يشعر به مثله ولا يبلغ من شأنه أن يكون حجة علمية تقنع المنكرين

كتب في سنة (١٨٩٧) الى الاستاذ فراديس صاحب كتاب « صور من الشكوك » يقول جوابا على سؤاله : « انني في أشد أحوال التردد لم أكن قط ملحدا اذا كان معنى الملحد انكار وجود الله · وأرى على العموم – وبخاصة مع تقدم السن – انني أحرى أن أسمي (لا أدريا) وان هذا الاسم أقرب الى الصواب في وصف تفكيري ·· »

وقال في خطاب كتبه الى طالب هولندي (في الثالث من ابريل سنة ١٨٧٣) :

« ··· يبدو لي ان استحالة القول بأن هذا الكون العجاب العظيم ، وما انطوى عليه من شعورنا الواعي ، انما كان وليد المصادفة – هو أكبر سند للقول بوجود الله ، ولكنه سند لا أستطيع أن أقرر قوة اقناعه كما لا أستطيع أن أغضي عن المشكلة التي تنجم مما يتخلل هذا العالم من الآلام » ··

وكتب اليه طالب ألماني في سنة ١٨٧٩ يسأله عن عقيدته الدينية ، وعن العقيدة التي يدعو اليها الأخذ بمذهب التطور ، فكلف أحد ذويه أن يجيبه ويجيب غيره ممن يوجهون اليه هذه الأسئلة قائلا :

« ان مستر داروين يعتذر لكثرة الرسائل التى ترد اليه ولا يتيسر له الرد عليها جميعا ، ويود أن يقول ان مذهب التطور يوافق كل الموافقة ايمان المؤمن بالله ٠٠ غير أننا يجب أن نذكر أن الناس يختلفون كثيرا فى تعريفهم لما يعنونه بالاله »

ويفهم من خلاصة رأيه فى سيرته التى كتبها بقلمه ، انه لا يفرق بين كتب العهد القديم وكتب الديانة الهندية من حيث نسبتها الى الوحى الالهى ، وانه لم يقم لديه الدليل على حدوث هذا الوحى فى التاريخ ، ولكنه اذا أراد أن ينظر الى المسألة الالهية من جانب الانتخاب الطبيعى فان أنواع الأحياء كانت خليقة أن تضرب عن تجديد وجودها واستمرار نسلها لو كانت شرور الحياة أكبر من حسناتها ، وهى الحجة التى يستند اليها الملحدون فى انكارهم للمقاصد الالهية

وكان داروين على تردده فى مسائل الغيب ، يشعر بقداسة الدين ويحرص على رعاية شعور المتدينين ولا يرتضى من العلماء أن يقحموا مذاهبهم على ضمائر الناس فيما اطمأنوا اليه من عقائدهم الروحية ، فلما أراد كارل ماركس أن يهدى اليه كتابه عن رأس المال كتب اليه معتذرا ، وقال من رسالة محفوظة الآن بمعهد ماركس وانجلز فى موسكو : « اننى أشكر لك رسالتك الودية ٠٠٠ وأفضل أن يكون هذا الجزء من الكتاب غير مهدى الى مع شكرى لهذه التحية ، اذ كان اهداؤه الى يتضمن على وجه من الوجوه اقرارى لما فى سائر الكتاب الذى لا علم لى به ٠ واننى — مع غيرتى على الدعوة الى حرية الفكر فى جميع المسائل — أرى ، صوابا أو خطأ ، ان المناقشات المباشرة التى تناقض المسيحية والايمان بوجود الله قلما يكون لها أثر على جمهرة الناس ، وان خير وسيلة لتحقيق الحرية الفكرية أن تتقدم العقول تبعا لتقدم العلوم ، ولهذا أرانى أتجنب الكتابة فى أمور الدين وأقصر كتابتى على المباحث العلمية »

وعاش داروين بقية حياته على هذا الرأى ، مؤمنا بأن مذهبه لا يقتضى من العقل أن ينفى وجود الله ، ولا أن يمس عقائد المؤمنين بوجوده ، وان الايمان بأية ديانة من الديانات لا يتوقف على الفصل فى قضية التطور الى الرفض أو الى القبول

أما « ألفريد رسل ولاس » شريك داروين فى القول بتعدد الأنواع من أثر الانتخاب الطبيعى وعوامل البنية الطبيعية ، فقد كان مؤمنا قوى الايمان بوجود الاله .. وكانت مراقبته لعوامل الطبيعة سببا لتصديقه بالمعجزات وخوارق العادات ، لأنه كان يستخلص من فعل هذه العوامل فى الطبيعة أنها لا تجرى على هذا المجرى لزاما بحكم العقل أو بحكم التفكير المنطقى ، وانها كان يجوز أن تجرى على مجراها هذا أو على مجرى آخر يساويه ويماثله فى حكم العقل والأقيسة المنطقية ، وانما هى الارادة الالهية التى أوجبت هذا النظام نتيجة لتلك العوامل ، فليست المعجزة التى يريدها الله أغرب من نظام العوامل المطردة فى ظواهر الكون ، ومرجعها جميعا الى الارادة الالهية على اطراد أو على استثناء

* * *

ومن عقيدة صاحبى المذهب فى مسائل الغيب ، نفهم أن العلماء والمفكرين فى الغرب ينقسمون هذا الانقسام وأن القول بأن عالما من العلماء أو فيلسوفا من الفلاسفة يقبل مذهب التطور على تعدد معانيه لا يدلنا على رأى محدود براه فى الدين المسيحى أو فى الدين عامة ، لأنه يجوز أن يكون من المؤمنين كما يجوز أن يكون من المنكرين أو المترددين ، حسب المنهج الذى ينهجه فى تفكيره وأساليب استدلاله

ومن المفكرين والعلماء من كان يجعل التطور أساسا لعقيدته الروحية أو الفكرية ، وأشهر هؤلاء بين فلاسفة القرن العشرين « برجسون » الفرنسى و « هوبتهد » الانجليزى ، وهو عدا اشتغاله العميق بالبحوث الرياضية والفلسفية رجل من رجال الدين وعالم من علماء اللاهوت ..

ويكثر بين العلماء الطبيعيين من يعتبرون التطور دليلا على النظام ، ويعتبرون النظام دليلا على وجود الخالق ، ومنهم أعضاء فى مجمع العلوم الملكى كالأستاذ « جلادستون » الذى يقول : « كثير منا نحن المسيحيين من رجال العلم من يدركون أن هناك وحدة فى النظام ووحدة فى الغاية ، تبدوان من خلال النظر الى خلائق الله .. ونحن ندين بأن مذهب داروين عن بقاء الأنسب لا يبطل فكرة التدبير الالهى أو فكرة النظام المقصود .. بل يؤكد هذه الفكرة ويمهد لنا سبيل النظر الى الوسائل التى اختارتها العناية الالهية لتدبير

مقاصدها منذ القدم ، فنرى انها نتيجة قانون منتظم وليست مجرد سلسلة من المفاجآت المتفرقة »

* * *

أما المنكرون من علماء الطبيعة ، فحجتهم فى الانكار أن العقيدة الدينية تقوم على الخوارق والمعجزات ، وانه لا سبيل الى التوفيق بين عقيدة تقوم على خرق قوانين الطبيعة وبين علم يقوم على تفسير الكائنات بما تقتضيه هـــذه القوانين

وأشهر القائلين بهذا الرأى بين علماء الطبيعة « ارنست هيكل » الالمانى و « توماس هكسلى » الانجليزى ، وهو أقرب الى الاعتدال فى الانكـــار من زميله ..

فهيكل يقول : « ان العقيدة الدينية تعنى دائما تصديق معجزة خارقة ، وهى بهذه المثابة قائمة على مناقضة ينقطع الرجاء فى التوفيق بينهـــا وبين عقيدة العقل الطبيعية ، وهى — على خلاف سنن العقـــل — تذهب الى فرض العوامل فوق الطبيعية ، ويحق من أجل ذلك لمن يشاء أن يسميها خرافية — أو غير طبيعية — وان ذلك الوحى المدعى الذى تأسست عليه عقائد المسيحية ليس مما يتفق مع أثبت النتائج التى وصل اليها العلم الحديث » ..

وهكسلى يقول : « اننا — أمام الأمور التى لا شـــك فى بعدهـــا عن الاحتمال — لا نقول اننـــا محقون فى طلب البرهان المقنـــع لتصـــديق وقوع المعجزة الخارقة .. بل نقول ان الواجب الأدبى يتقاضانا أن نجد هذا البرهان قبل أن نأخذ تلك المعجزة الخارقة مأخذ الجد والاعتبار ، ولكننا اذا كنا — بدلا من الوصول الى ذلك البرهـــان المقنع — لا نرى أمامنا الا حكـــايات نجهل كيف نشـــأت ومتى نشـــأت بين أناس يستطيعون أن يصـــدقوا كـــل التصديق أن الشياطين تتلبس بأجسام الخنازير ، فاننى أصرح بأن شعورى انما هو شعور الدهشة من أن أرى الانسان العـــاقل ينظر الى شهادة هؤلاء نظرة جدية ... »

* * *

وعلى مثل هذا المحور يدور الخلاف بين الفريقين اللذين يتفقان فى قبول مذهب التطور ، ولكنهما لا يتفقان فى الحكم على دلالته من الوجهة الدينية ،

ولكن هذا الاختلاف لا يرجع الى المذهب فى ذاته .. وانما يرجع الى طريقة النظر اليه وطريقة التفكير التى تعودها ذهن العالم أو الفيلسوف ، فربما خرج الذهنان بنتيجتين متناقضتين من فكرة واحدة يراها أحدهما برهانا على وجود الله ويراها الآخر مغنية عن البحث فى اثبات وجود الله ، وقد سأل نابليون بونابرت أكبر علماء الفلك فى زمانه ــ لابلاس ــ عن مكان العناية الالهية فى حركات الأفلاك ، فكان جوابه انه لا يرى لها مكانا فيما يعلمه من تلك الحركات ، كأنه يقول ان قوانين الحركة وحدها تفسر دورة الفلك تفسيرا يغنى عن النظر الى علة أخرى وراءها ، وهو أسلوب من التفكير يناقض أساليب الذهن الذى يراقب دورة الفلك ويعلم أن العقل لا يستلزم حصولها على هذا الوجه دون غيره ، وانه لابد ــ اذن ــ من البحث عن الارادة التى اختارت لها هذا الوجه من الحركة فانتظمت عليه ..

ولعل الفارق بين هذين النمطين من التفكير يتعلق بالنظرة الى النظام والمعجزة ، فمن كان من القائلين بالتطور مؤمنا بالعناية الالهية فطريقته فى التفكير أن يستدل بانتظام الخلق على وجود الخالق ، وأن يرى بعد ذلك ان المعجزة لا تستغرب مع الايمان بالقدرة الالهية والحكمة التى تستدعيها ، اذا كان هناك ما يستدعى صنع المعجزات فى رأيه

ومن كان من القائلين بالتطور معطلا للعقيدة الدينية ، فطريقته فى التفكير أن التوفيق متعذر بين تفسير الكائنات بالقوانين الطبيعية وبين خرق هذه القوانين لاثبات عقائد الدين

* * *

لكن الرأى الأخير الغالب على علماء اللاهوت المسيحيين أن معارضة الرؤساء من رجال الدين لمذهب التطور عند اعلانه قبل مائة سنة لم يكن من سداد الرأى فى شىء ، وان هذه المعارضة ينبغى أن تحسب على أصحابها ولا تحسب على الديانة المسيحية التى لا تأبى التفسير على وجه موافق لمذهب التطور على أقواله المتعددة ، ويعبر عن هذا الرأى فى كتاب مؤلف لهذا الغرض عالم من أكبر علماء الرياضة وعلماء اللاهوت المعاصرين وهو الأستاذ كولسون عضو مجمع العلوم الملكى وصاحب كتاب « العلم والعقيدة المسيحية » ومدار الرأى فيه كله على هذه الفكرة سواء فيما يرجع الى مذهب التطور أو الى غيره من مذاهب العلم الحديث

سلسلة الخلق العظمى

سلسلة الخلق العظمى مذهب يوازى مذهب التطور ، ويتمشى معه فى معظم الطريق ‥ ولكنه لا يبتدىء معه من البداية ولا ينتهى الى الغاية ‥

وصفوة القول بسلسلة الخلق العظمى ، أن الوجود درجات متفاوتة فى ترتيب الضعة والشرف ، تبتدىء من المادة الأولى التى لا صورة لها وترتفع الى مرتبة الوجود الالهى الذى تمحض له العلم والخير ، فهو علم لا يعرض له الجهل ولا يحتجب عنه سر ، وخير لا يشوبه الشر ولا يقح له فى ارادة ‥

وهذه السلسلة العظمى كاملة فى انتظامها لكل حلقة من حلقات الوجود ، وكل قابلية من قابليات الصفات والاعراض ، فلا تفرغ السلسلة العظمى من احدى هذه الحلقات ، ولا يعقل أن توجد فى الامكان قابلية لشىء قط ولا توجد فى الواقع من حلقة من حلقات الوجود السفلى أو العلوى ‥

❊ ❊ ❊

والرائد الأكبر لهذا المذهب بين الأقدمين أفلاطون الملقب بالحكيم الالهى ، فهو الذى وضح هذا المذهب توضيحا فلسفيا وبناه على حجة عقلية ، وهى ان الاله — وهو خير محض — يأبى له كرمه أن يضن على شىء ، كائنا ما كان ، بنعمة الوجود ‥ فمهما يبلغ من حقارة شأنه فهو مستحق لحصته من الوجود فى مرتبته من الخلق ، ومستحق لأن يصعد من هذه المرتبة الى مافوقها بنعمة من الله وبما ركب فى طبائع الأشياء من شوق الى الكمال

والراجح أن هذا المذهب وصل من الهند الى حكماء اليونان من طريق العبادات السرية التى عرفت باسم النحل « الأورفية » وأسبق ناقليه من كبار الفلاسفة اثنان هما : فيثاغوراس وامبدوقليس ، وكلاهما يقول بتناسخ الأرواح ، ويتنطس فى معيشته على نظام الرياضة الصوفية والرياضة البدنية ، وبين أتباعهما من كان يجمع بين التقشف ومراس الرياضة البدنية ويفوز فى مبارياتها العامة ‥

وقد كان فيثاغوراس يتجنب أكل اللحوم ، ويقسم الأغذية الى صالحة للروح وغير صالحة لها لأنها بهيمية ، وكأنه كان يحرم أكل اللحوم لأنها مأكل السباع ويحرم أكل الفول وما اليه لأنه مأكل البهائم ، ويحسب أن الأرواح تنتقل بين الأجساد لترتفع أو تهبط فى درجات الخلق ومراتب البهيمية والروحانية ، وله من الأقوال المقتضبة ما يشبه مذهب الهند فى الدورات الأبدية التى يحسبونها بعدد مقدور من ألوف السنين ، مع قسمة السنين الى شمسية وكونية .

* * *

وجاء بعده امبدوقليس ، فقسم درجات المادة واعتبر العناصر الأربعة أشرفها وأعلاها ، وسماها بالجذور قبل أن تعرف باسم العناصر وتسمى بعنصر النار وعنصر الهواء وعنصر الماء وعنصر التراب

والعالم عند أصحاب القول بالسلسلة العظمى ، عالمان : كبير وصغير . فالعالم الكبير Macrocosm هو الكون كله بما اشتمل عليه من كائنات علوية وسفلية ومن مراتب روحية وبهيمية ومادية ، والعالم Microcosm الصغير هو الانسان ، لأنه يحتوى فى تكوينه كل عنصر وكل مادة وكل درجة ، ويتقبل الارتفاع الى صفات العلم والخير ، أو صفات العقل والتدبير التى تمت للاله على أكملها وأرفعها ، كما يتقبل الهبوط الى مرتبة البهيمية وما دونها ، وفى الانسان شىء من خصائص الأجسام المادية ، وشىء من خصائص الأجسام النباتية ، وشىء من خصائص الأجسام الحيوانية ، وشىء من خصائص الروح الذى يكون للملائكة بغير جسد ، وشىء من المعرفة التى يقترب بها من الصفات الالهية .

وقد انتقل مذهب السلسلة العظمى من الهند واليونان الى العرب ، وانتقل من العرب الى متصوفة الأوربيين ، وكان من تلاميذ الحكمة العربية رجل تسنم عرش البابوية فى آخر سنة قبل نهاية القرن العاشر (٩٩٩ م) وهو سلفستر الثانى ، وظهرت آثارهما فى أقوال القديس توما الاكوينى والبرت الكبير « ويرى الاستاذ آسين بلاسيوس الاسبانى أن نزعات دانتى الصوفية وأوصافه لعالم الغيب مستمدة من محيى الدين بن عربى بغير تصرف كثير ، ومن المعلوم أن أول الفلاسفة الصوفيين من الغربيين — جوهان

اكهارت الالمانى ـ نشأ فى القرن التالى لعصر ابن عربى ودرس فى جامعة باريس ، وهى الجامعة التى كانت تعتمد على الثقافة الأندلسية فى الحكمة والعلوم(١) »

* * *

ولعل اكهارت هو أسبق المقتبسين من المتصوفة الغربيين لقول ابن عربى ، ان الله هو الوجود الحق وان كل ما عداه من موجود فوجوده عارية ، وهو قول فى جملته يعيد الى الذهن قول أفلاطون ان الله هو مقياس كل حقيقة ردا على بروتغوراس Protogoras الذى كان يقول : ان الانسان هو مقياس الوجود ، وان الله أنعم على الانسان بالحياة « الزمنية » لأن الزمن محاكاة للوجود الأبدى الذى اختص به الاله دون سواه ، وليس بين القوانين تناقض فى النهاية ، لأن أفلاطون يعود فيجعل العقل ـ صفة الله العليا ـ درجة يبلغها الانسان ولا يدركها من دونه من المخلوقات ، ولكنه قد يعلو بالعقل فوق مرتبة المادة التى تمتزج بالعقل فى تكوين الانسان ..

* * *

وقد كان لفلسفة أرسطو نصيب غير قليل من الأثر فى توجيه عقول الأوربيين منذ القرون الوسطى الى مذاهبهم أو أقوالهم ، فى سلسلة الوجود العظمى ، لأنه رتب الموجودات على حسب نصيبها من الحس ، وقارب بين النبات والحيوان ، فجعلهما مشتركين فى « النفس » النامية ، وكاد أن يجعلها رتبة من رتب العقل يتوسط فيها النبات بين الجماد والحيوان ، ولم يكن فى تصنيفه للكائنات فاصل حاسم بين الحيوان وما دونه لأن « التولد الذاتى » كان فى تقديره من الممكنات ، وانقضت بعده القرون الوسطى وأوائل العصر الحديث قبل أن تظهر للعلماء استحالة تولد الحيوان من غير الحيوان

وتقبل اللاهوتيون الأوربيون فكرة السلسلة العظمى ، كما وصلت اليهم من مفكرى العرب ومتصوفتهم ، فلم يجدوا فيها تناقضا ينكرونه بين القول بخلاص الانسان بالايمان وقول سقراط وأفلاطون أن العقل هو الصفة الالهية التى يتحلى بها الانسان ويعلو بها من أفق الخلائق الدنيا الى أفق النعمة

---

(١) أثر العرب فى الحضارة الأوروبية للمؤلف

الالهية ، وان الانسان بمعرفته للأشياء يحتويها ويملكها ويؤتمن على تدبيرها محاكاة لقدرة الله على تدبير الخير لمخلوقاته ، فان التناقض بين خلاص الانسان بالايمان وخلاصه من أوهاق المادة بالعقل والمعرفة ، يبطل ويزول متى اعتقد المفكر أن العقد الرشيد سبيل الى الايمان بالله والتعويل على البركة الالهية فى تطلعه الى النجاة والخلاص

* * *

ولم يصطدم الرأيان من بعض الجوانب الا بعد ظهور فلسفة ابيلارد (١٠٧٩ ــ ١١٤٢ م) الذى فسر السلسلة العظمى بأنها لازمة ضرورية تستوعب كل الممكنات ، فيستحيل أن يوجد شيء غير ما هو موجود ، لأن الخالق فى علمه وقدرته يعلم جميع الممكنات ولا يعجز عن تحقيق ممكن منها يتعلق بعلمه وارادته ، فأنكر عليه معاصره برنارد دى كليرفو (١٠٩١ ــ ١١٥٣) داعية الحرب الصليبية الثانية ذلك التفسير ، وقال انه يناقض ما ينبغى أن نؤمن به من غضب الله على الخطيئة والرذيلة ومن انعامه بالخلاص على الخطاة ، وكان القديس توما الاكوينى (١٢٢٦ ــ ١٢٧٤) يميل الى تأييد برنارد فى اعتراضه على تفسير ابيلارد ، ويكاد يعيد ردود الغزالى على ابن رشد فى مثل هذه المناقشة ، فيقول : ان خلق الله لهذه الموجودات على سنتها التى أودعها فيها لا ينفى قدرته على خلق غيرها زائدا عليها ، ولا ينفى قدرته على خلقها مرة أخرى فى صورة غير هذه الصورة ، فليس انتظام سلسلة الخلق مانعا أن تنتظم لها حلقات غير هذه الحلقات وسلسلة غير هذه السلسلة مع استيعاب الله لجميع الممكنات ، لأن التبديل فى الممكنات غير مستحيل .

وجاء بيكوديلا ميرندولا (١٤٦٣ ــ ١٤٩٤) Pieo della Mirandola فقال بما كان يقوله المتصوفة المسلمون من قبول الانسان لأرفع المراتب وأدناها ، وان كل مخلوق قد يلتزم مكانا من سلسلة الخلق لا يعدوه ما فوقه ، الا الانسان .. فانه لا يتقيد بمكان من السلسلة العظمى غير المكان الذى يرتضيه لنفسه ، علوا الى مرتبة الملائكة المقربين ، أو سفلا الى مرتبة البهائم والحشرات

* * *

وعاد البحث فى مكان الانسان بعد كشف كوبرنيكوس لدوران الأرض

حول الشمس ، وتجدد المناقشة عن مركز الخليقة ، وعن مكان الانسان على هذا المركز المختار ٠٠ قد يجوز أن يكون للعالم الأرضى نظراء له من العوالم السماوية وأن يكون لتلك العوالم سكانها من الخلائق العقلاء ، ولكن هذه المناقشة لم تزعزع أساس الفكرة التى تسلسل الموجودات من أدناها الى أعلاها فى العالم المعروف ، وفى كل عالم يمكن أن يعرف قياسا عليه ، ظلت فكرة السلسلة العظمى غالبة على الباحثين فى مركز الانسان من الخليقة ، وقال بها فلاسفة الشعراء كما قال بها فلاسفة الحكمة والدين الى زمن قريب ، وعلى أساس هذه الفكرة نظم الشاعر الانجليزى اسكندربوب (١٦٨٨ — ١٧٤٤) قصيدته الكبيرة التى سماها مقالة عن الانسان ، وقال فيها يخاطب الانسان

« اعرف اذن نفسك ، ولا تدع الاحاطة بعلم الله

« ان دراسة الانسان المثلى هى الانسان

« قائما على برزخه هذا من الحالة الوسطى

« مخلوقا فى ظلمة ، عظيما فى خشونة

« أعلم من أن يكون « شكوكيا » لا يدرى

« وأضعف من أن يكون « رواقيا » يصبر

« معلقا بين العمل والراحة

« معلقا بين الالهية والبهيمية

« معلقا يتردد بين ايثار عقله أو بدنه

« يولد ولكن ليموت ، ويعلم ولكن ليخطىء

« يحيط به الجهل نقص علمه أو زاد

« ويختلط أمره فى فوضى من الفكر والشهوة

« وهو هو الذى يسىء الى نفسه أو يتجنب الاساءة

« مخلوقا نصفه ليرتفع ونصفه لينحدر

« سيدا لجميع الأشياء وفريسة لها جميعا

« وهو الحكم الوحيد فيما هو حق وباطل ، ولكنه يضطرب فى خطأ

« دائم

« ولا يزال فخر الخليقة ، وسخريتها ، ولغزها الغامض ، فى آن »

وهذا هو مكان الانسان الأوسط ، بين حلقات هذه السلسلة العظمى التى اذا انكسرت احداها وقع الخلل فى سائرها »

وجاء بعده شاعر آخر هو جيمس تومسون صاحب قصيدة الفصول ١٧٠٠ ــ ١٧٤٨) فنظم الوجود من طرفى هذه السلسلة العظمى « بين الكمال الذى لا حد له ، وبين حافة الهاوية السفلى والعدم المرهوب »

* * *

وتوقف البحث فى سلسلة الخلق العظمى بعض التوقف بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، ولكنه لم ينقطع ٠٠ ولا نعتقد أن الانقطاع عن البحث يعرض لمسألة الانسان ومركزه من الكون فى زمن من الأزمان ، وانما انقطع البحث فى مذهب التطور وفى علوم الاحياء عامة وعلم الانسان خاصة على هذا النطاق الواسع الذى يشمل اليوم علم الحياة أو « البيولوجى » وعلم الحيوان « الزولوجى » وعلم الأجناس البشرية « الاثنولوجى » وعلم الانسان « الأنثروبولوجى » عدا مباحث شتى تتصل بالمعلومات العامة عن الانسان ومركزه بين الكائنات فى آراء علماء الطبيعة وآراء الفلاسفة والمفكرين ٠

* * *

ونعود الى السلسلة العظمى عند العرب الذين نقلوا أهم مصادرها الى الأوربيين ، فنقول انهم عرفوها ــ كما تقدم ــ من مصادر شتى ولم يجعلوها دستورا عاما يحيط بالموجودات ويقرر للانسان مكانه على مذاهب القائلين بتلك السلسلة ، لأن مكان الانسان كما ورد فى آيات القرآن الكريم أغناهم عن القول بمكان له ينسبه الى سلسلة الخلق ، ويلحقه بها لزاما على طريقة الأقدمين فى الحاقه بغير الخلائق الآدمية ٠٠

وانما عرفت لحكماء العرب أقوال تشير الى ترتيب السلسلة فى مواضع متفرقة من بحوث العلم أو الدين ٠٠

ومنها ترتيب آفاق الموجودات كما تقدم فى فصل « التطور قبل مذهب التطور » من هذا الكتاب

ومنها الكلام على « النفس والروح والعقل » والتفرقة بين مراتبها ٠

ابتداء من النفس التى كان أرسطو يجعلها قوة مشتركة فى الخلائق النامية ، الى الروح التى تعلو على النفس فى هذا الاعتبار ويمتاز بها الانسان عما دونه ، الى العقل وهو الصفة الالهية التى يتحلى بها الانسان ويقترب بها من أفق الخالق أو المحرك الذى تقترب منه الموجودات بمقدار حركتها اليه ، وأشرفها حركة الانسان الى المعرفة وشوقه الى الكمال

* * *

وعرف القول بالعالم الأكبر والعالم الأصغر بين المتصوفة ، كما جاء فى أبيات تنسب الى الامام على بن أبى طالب ولم تتحقق نسبتها اليه ، ومنها عن الانسان :

دواؤك فيك وما تشعر
وداؤك منك وما تفكر

وتزعم انك جرم صغير ، وفيك انطوى العالم الأكبر

* * *

ووافق القول بنجاة الانسان بعقله ما ورد فى آيات القرآن الكريم من الأمر بالتفكير والتدبر ، فقال به كثيرون من حكماء الاسلام ثم فرق المتصوفة والمتنسكون بين ضربين من المعرفة أحدهما يستقيم بصاحبه على سنن الهداية ، والآخر يلتوى به دون قصد السبيل ، وكذلك قال ابن مسكويه بعد كلامه المتقدم فى فصل آخر : « ان هذا التشوق ربما ساق الانسان على منهج قويم وقصد صحيح حتى ينتهى الى غاية كماله وهى سعادته التامة • وقلما يتفق ذلك • وربما اعوج به عن السمت والسنن ، وذلك لأسباب كثيرة يطول ذكرها •• ولا حاجة بك الى علمها الآن وأنت فى تهذيب خلقك • فكما أن الطبيعة المدبرة للأجسام ربما شوقت الى ما ليس بتمام للجسم الطبيعى لعلل تحدث به وآفات تطرأ عليه بمنزلة من يشتاق الى أكل الطين وما جرى مجراه ، مما لا يكمل طبيعة الجسد بل يهدمه ويفسده ــ كذلك أيضا النفس الناطقة ربما اشتاقت الى النظر والتمييز الذى لا يكملها ولا

يشوقها نحو سعادتها بل يحركها الى الأشياء التى تعوقها وتقصر بها عن كمالها ، فحينئذ يحتاج الى علاج نفسانى روحانى كما احتاج فى الحالة الأولى الى طب طبيعى جسماني ، ولذلك تكثر حاجات الناس الى المقومين والمنفعين والى المؤدبين والمسددين .. فان وجود تلك الطبائع الفائقة التى تنساق بذاتها من غير توقف الى السعادة عسرة الوجود لا توجد الا فى الأزمنة الطوال والمدد البعيدة .. وهذا الأدب الحق الذى يؤدينا الى غايتنا يجب أن نلحظ فيه المبدأ الذى يجرى مجرى الغاية ، حتى اذا لحظت الغاية تدرج منها الى الأمور الطبيعية عن طريق التحليل ثم يبتدىء من أسفل عن طريق التركيب ... وينبغى أن يعلم أن كل انسان معد نحو فضيلة ما ،فهو اليها أقرب وبالوصول اليها أحرى ، ولذلك تصير سعادة الواحد من الناس غير سعادة الآخر ، الا من اتفق له نفس صافية وطبيعة فائقة فينتهى الى غايات الأمور والى غاية غاياتها ، أعني السعادة القصوى التى لا سعادة بعدها » .

ويرى المتصوفة أن المعرفة معرفتان كما يرى الحكماء من أمثال ابن مسكويه ، ولكنهم يقسمونها الى معرفة لدنية ومعرفة كسبية ، ويقصدون بالمعرفة اللدنية ما يدركه الانسان بالالهام والاستشراق ويهتدى اليه برياضة النفس وقمع الجسد ، وهى معرفة غير معرفة التعلم والدراسة ، على حد قول سعيد بن أبى الخير فيما روى من كلامه عن ابن سينا « ان ما يرى على ضوء المصباح وصل اليه هذا الأعمى بعكازه »

ويتممه قول ابن سينا عن الحدس الصادق أنه حالة يقابل بها عقل الانسان مصدر العقول جميعا ، فيدرك بالالهام والتوفيق ما ليس يدرك ابتداء بالدرس والبرهان

* * *

وفى غير هذا الفصل بيان لمذهب حجة الإسلام الامام الغزالى فى حكمة الموجودات وحكمة خلق الانسان بين خلائق السماوات والأرضين ، وهو أمثل ما يقال عن سلسلة الخلق العظمى بتفسير أهل السنة ، على هدى القرآن الكريم ..

الإنسان في علم الحيوان وفي علوم الأجناس البشرية

الانسان من الفقاريات Vertebrates ، ومن الأوائل Primates بين الفقاريات ..

وهذه الأوائل تسمى أحيانا بالبشريات Anthropoids وتشمل الانسان والقردة العليا ، وهي الغوريلا ، والأورانج ، والشمبانزى ، والجيبون

ويختص الانسان من بين البشريات باسم يميزه وهو اسم الانس Hominidae كما يختص القردة على عمومها باسم النسانيس Simidae. فيفرقها هذان الاسمان حيث يجمعها اسم البشريات

ويرى بعض علماء الأحياء أن اسم الانس يطلق على الكائن الذى وجدت بقية من جمجمته في حفائر جاوة وأطلق عليه الدكتور دبوا Dubois الذى وجد تلك البقية اسم Pithecanthropus Erectus لدلالة بقاياه على قامته وامتيازه باتساع الدماغ على البشريات ، ولكن الرأى الغالب اليوم أن النوع الانسانى بمزاياه التى بقيت له الى اليوم مخالف فى الخصائص الانسية لصاحب تلك الجمجمة ، وان هناك اختلافا غير قليل بين أناسى الحفائر من قبيلة وبين الانسان الذى يطلق عليه اليوم اسم الحيوان الناطق أو العارف أو المميز Home Sapiens من الكلمتين اللاتينيتين « هومو» بمعنى بشر — و « سابيين » بمعنى ذى فهم أو ذى ادراك أو ذى كياسة

* * *

وننقل هنا خصائص النوع الانسانى فى علم الحيوان ، كما أثبتها أقدم الكتب العلمية التى بحثت مذهب التطور باللغة العربية ، وعنيت بايراد أوجه الاعتراض عليه وأوجه الاختلاف بين الانسان وغيره من البشريات من الوجهة التشريحية كما قررها علم الحيوان قبل نهاية القرن التاسع عشر ، ونعنى به كتاب « تنوير الأذهان فى علم حياة الحيوان والانسان » لمؤلفه الدكتور بشارة زلزل — وقد صدر الاذن بطبعه من

نظارة المعارف بالآستانة بتاريخ ١٣ رجب سنة ١٢٩٧ وتم طبعه بعد ذلك بمطبعة مجلة الجامعة فى الاسكندرية

قال المؤلف فى الصفحة (١٦٧) من المجلد الأول : « فاذا نظر الى الانسان على سبيل المقابلة بتلك القرود التى هى لا شك أقرب الحيوانات اليه ، يرى أن الانسان ماش منتصب القامة على قدميه ، لأن سلسلة ظهره مقوسة فى العنق وفى الظهر وفى الصلب ، وليس للقردة شىء من ذلك • وعلة ذلك على ما قال بعض المدققين زيادة نمو الدماغ ، لأنه يؤدى الى كبر القحف ، فتتغير الجلسة بدليل عدم استوائها فى الأطفال • وبناء عليه تكون موازنة الرأس للبدن سببا لاستواء الجمجمة على العمود الفقرى ، وقالوا ان الأقواس الثلاثة المذكورة تكون فى المتمدنين أوضح مما هى فى المتوحشين • وعلى الجملة فان موازنة الرأس مع البدن فى أكثر الحيوانات اللبونة تناط بالأربطة العنقية ، وهى قوية جدا فيها وفى القردة بالعضلات المتينة التى تندغم فى القذال والسناسن (النتوءات الشوكية) وهى فيها أطول وأغلظ مما فى الانسان بضعفين ، ويتوقف عليهـا وعلى الرأس حفظ الرأس على الوضع الأفقى فلا يضغط على الصدر لذلك ، وليس الأمر كذلك فى الانسان لأن ثقل جمجمته يتكافأ مع ثقل البروز الوجهى فيستوى الرأس على الهامة بدون أن يكون للعضلات والأربطة العتيقة الا المحافظة على الموازنة المذكورة ومقاومة ميل الرأس الى الأمام • ولذلك كانت الأربطة فى الانسان ضعيفة • قال الأستاذ بروقا Procea وتابعه كثيرون ، ان السبب فى انتصاب قامة الانسان واستوائه ماشيا على قدميه انما هو نمو الدماغ ، لأن هذه المشية تجعل اليدين مطلقتى الحركة والنظر متجها الى الأفق • وطفل الانسان يشبه الدبابات ، لأنه عديم الأقواس الفقرية فلا يظهر القوس العنقى الا متى ابتدأ الطفل أن يضبط رأسه فى الجلسة التى يعود عليها ، وذلك فى الشهر الثالث من عمره • وفى السنة الثانية غالبا يتكون القوس الظهرى من جراء فعل العضلات الظهرية والصلبية للقطر السفلى للعمود الفقرى ، وذلك اذ يبتدىء الطفل أن يدرج

« وبالجملة فان الخاصة التى يصدر عنها حسن تقويم الانسان ويتوقف عليها امتيازه على سائر الحيوان ، وتتفاوت بحسبها مراتب الأمم فى المدنية

انما هى نمو الدماغ وزيادة حجم الجمجمة ، وقد أجمع الباحثون على أن معدل وزن الدماغ فى الأوربيين يكون متوسطه فى الرجال ١٣٦٠ غراما ، وفى النساء ١٢٠٠ غرام ، وأعلاه ١٦٧٥ غراما ، وأدناه ١٠٢٥ غراما ٠٠ وما نقص عن ذلك يدل على البلاهة لعلة أو آفة

« والقرود الشبيهة بالانسان أكبر الحيوانات دماغا ، ومعدل وزنه المتوسط فيها ٣٦٠غراما،وغاية ما بلغه فى الأورانج ٤٢٠ غراما ، وقد عد ذلك من الشواذ ٠٠ وعلى قدر نمو الدماغ تزداد سعة القحف ويقل البروز الوجهى ، والفرق بين الانسان والحيوانات من هذا القبيل أوضح من أن يبين ، فاذا نظرت الى جمجمة انسان من الأعلى لاترى البروز الوجهى بخلاف ما اذا نظرت الى جمجمة القردة وغيرها من الحيوانات ٠ واذا نظرت الى جمجمة القرد من جانب ، ترى الوجه شاخصا الى الأمام يؤلف خطا مستطيلا ، وذلك من الخصائص البهيمية ٠ ويستدل على معرفة درجة هذا البروز بالزاوية الوجهية ٠ وفضلا عن ذلك فان الجزء الوجهى للعظم الوجنى قليل النتوء فى الانسان بخلاف ما هو عليه فى القرود ، واذا نظرت الى الجمجمة من الوراء لا ترى الثقب المؤخرى فى جمجمة الانسان وتراه كله أو قسما منه فى جمجمة القرود ٠ وهذه الأعراف الدالة على الشراسة والصفات البهيمية فى القرود غير موجودة فى الانسان ، وهى لازمة فيها عن نمو العضلات المضغية التى يترتب عليها تحريك الفكين الضخمين ، وعن نمو عضلات القذال التى يتوقف عليها اسناد الرأس على العنق ، ومعلوم أن قحف الحيوان الصغير لا يتسع لاندغام هذه العضلات فيه ، فحيث وجدت اضطرت النسيج العظمى فى ابان نموه أن يهيىء لها مندغما ، فنشأ عرفا ٠ والدليل على ذلك أن هذه الأعراف لا توجد فى القرود الصغيرة ٠ ومثل ذلك يقال عن النتوءات الشوكية البارزة فى عنق الغول ، ولما كانت هذه الأعراف والنتوءات أصغر فى الأوران مما هى فى سائر القرود لم يتوازن رأسه على بدنه ، فيرى الخطم الثقيل مدلى على صدره ، ولذلك خص بالأكياس الحنجرية تلطيفا لضغط خطمه على مجرى الهواء ٠ أما الجيبون فخطمه صغير وأعرافه قليلة النتوء والأكياس الحنجرية غير موجودة فيه ، فهو أقرب القرود الى الانسان ولكن طول ذراعيه يبعده كثيرا عن الانسان ، لأنه يتوكأ عليهما فى مشيه كما يتوكأ الانسان على هراوته ٠٠

« ومن الخصائص الفارقة بين الانسان والقرود ابهام الرجل ، فهو فى القرود أشبه بابهام اليد لأنه يقاوم كلا من الأصابع ويلامسها ، وهو ليس كذلك فى الانسان ، لأنه يناسب فيه حالة المشى وانتصاب القامة كما أنه يناسب فى القرد حالة التسلق والامساك

« ومن هذه الخصائص تباين شكل الأسنان وحجمها •• فأسنان الانسان بالنسبة الى جسده أصغر مما هى فى القرود ، واذا تأملت فى الصورة راعتك من منظر الغول أنيابه • أما النواجذ والطواحن فى هذه الحيوانات فكبيرة جدا ، بالنسبة الى طول القسم الوجهى من الجمجمة •• وما عدا ذلك فان وضع الأسنان فى سنخ الانسان على نسق منتظم خلافا لما يرى فى القرود حيث يتخلل نابى الفك العلوى وثناياه خلاء تتداخل فيه أسنان الفك ••• والخصائص المميزة للانسان تزداد وضوحا بتقدم المدنية والعمران ، لأن اختلاف طرق المعاش يؤدى الى تنويعها فتبتعد عن الحالة الطبيعية كما ترى فى أقواس العمود الفقرى ، فانها فى المتمدنين أكثر وضوحا مما هى فى المتوحشين »

وترجع علوم الانسان الى علم الحيوان لدراسة تواريخ البشر الاجتماعية ، كما ترجع اليه أحيانا فى دراسة تقدمهم الثقافى منذ وجد الانسان بخصائصه المعروفة للحيوان الناطق Homo Sapiens وقبل وجود هذا الانسان فى العصور السحيقة التى استخدمت فيها الآلات على شىء من الخشونة البدائية • ويشيع ــ من أجل هذا ــ أن هذه العلوم قد تأثرت بمذهب التطور كما بسطه لامارك ، وكما بسطه دارون من بعده ، ولكن الأصح أن المعلومات المتشعبة التى تجمعت من درس الحفائر وطبقات الأرض ورحلات الجغرافيين واللغويين بين أرجاء العالم القديم والعالم الحديث •• قد كان لها أثرها البين فى مذهب التطور وفى سائر العلوم الانسانية المتعددة ، ومنها علم السلالات وعلم الانسان وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلوم المقارنة بين اللغات

* * *

ومحصل هذه المعلومات المتشعبة بين العلوم الانسانية أن البشر وجدوا وانتشروا على جهات متقاربة من العالم القديم منذ العصر « الميوسينى »

Miocene قبل نحو مليونى سنة ، وانهم كانوا يومئذ على حالة متوسطة بين الحيوان الناطق وطبقة بشرية دون هذه الطبقة ، ثم تميزت خصائص الانسان بعد ابتداء العصر الجليدى منذ نحو مليون سنة ، ولكن الانسان الذى استخدم الآلات وصاغها من العظام والحجارة لا يعرف له تاريخ جلى قبل مدة تتراوح فى تقدير العلماء بين مائتى ألف ومائة ألف سنة • وكانت بداية انتشار الجماعات الانسانية بين القارات الثلاث منذ العصر الحجرى الأول ، ثم تلاه العصر الحجرى الحديث الذى تميز فيه الانسان بأكبر مزاياه ، وهى الحياة الاجتماعية والقدرة على استخدام الآلات والنار وتسخير سائر المخلوقات ، وتدجين الأوابد على مراحل متتابعة ، أولها مرحلة تدجين الكلب للاستعانة به فى الصيد ، وتأتى بعدها مرحلة تدجين الماشية والحمار والحصان للاستعانة بها فى الزراعة وفى الانتقال من مكان الى مكان حيث يوجد الكلأ والماء

وفى هذه المراحل ملك الانسان زمام الخليقة ، وبلغ المنزلة التى استحق بها أن يسمى نفسه سيد المخلوقات ، وتمهد له سبيل السيطرة على الحيوان والنبات وظواهر الطبيعة حينما احتاج اليهما ، ويعتقد بعض علماء السلالات البشرية ان الانسان تقدم شأوه الأول فى صراعه للحيوان وظواهر الطبيعة ، ثم تقدم شأوه الثانى ــ والأهم ــ فى صراعه بينه وبين أبناء نوعه ، واتسع الفارق بين ملكاته فى شأوه الأول وملكاته فى شأوه الثانى بمقدار اتساع الفارق بين الحيلة التى تلزم للتغلب على الحيوان والحيلة التى تلزم للتغلب على أمثاله من الآدميين ، ثم تلزم لابتداع وسائل أخرى للتغلب كلما تساوى الناس فى وسائلهم المشتركة

وقد كان الناس قبل شيوع الآلات وتدجين الحيوانات سلامة واحدة ، لا تختلف في الملامح والألوان ولا يظهر بين بقاياهم الأثرية ما يدل على فارق عنصرى كالفوارق التى تختلف بها اليوم سلالات البشر من سكان العالمين القديم والحديث •

* * *

ولكن ابتداء التغالب بين البشر فرق مواقع السكن ، وفتح الطريق لاختلاف السلالات على حسب الاقليم والمناخ والقدرة العقلية على الاحتفاظ

بالمسكن أو على الهجرة منه الى غيره ، ويعزى الى هذا التفرق ظهور السلالات الأربع المشهورة ·· وهى التى تسمى عند علماء السلالات بأسماء مختلفة ، أوضحها أسماء ألوان البشرة ، وهى البيضاء ، والسمراء ، والصفراء ، والسوداء ، وقد أحصى بعض العلماء أربعة وثلاثين لونا تتراوح من الشقرة الى السواد الفاحم ، ولكنها كلها تئول الى تلك السلالات الأربع عند التمييز بينها بأشكالها وملامحها الجسدية

وأبرز الفوارق بين السلالات ـ غير لون البشرة ـ شكل الشعر والأنف والفك وطول القامة · وقد تعرف القرابة بين السلالات التى انفصلت بين القارات بما بينها من التقارب فى شكل الشعر دون غيره ·· فيرجحون أن سكان أمريكا الأصلاء وسكان آسيا الشرقية من أصل واحد ، لما بينهم من التشابه فى استقامة الشعر وخشونته ولونه الضارب الى السواد · وقد أمكن اليوم تعليل أبرز الفوارق بين سلالات البشر بأسباب المناخ والاقليم ، فنسب الأنف الأفطس والجلد الأسود الى فعل الحرارة ، كما نسب الأنف الأقنى الطويل والجلد الأبيض الى برد الاقليم واحتياج سكانه الى وقاية الرئة واستغنائهم عن الصبغة الجلدية حيث يلطف وقع الأشعة على البشرة · وبمثل هذا السبب يعللون اختلاف الشعر بين النعومة والتموج وبين الخشونة والتجعد ، وبين الشعر الحريرى والشعر الصوفى فى الشكل والملمس ، ولا يصعب تعليل خاصة عنصرية واحدة بعلة ـ أو مجموعة من العلل ـ ترجع الى المناخ وأحوال المعيشة.

الا أن الفوارق الفكرية أصعب من هذه الفوارق الجسدية تعليلا بأسباب المناخ وأحوال المعيشة ، وأبرزها فوارق اللغة لأنها قابلة للضبط والتقسيم ، أو هى أدنى الى التقسيم بالضوابط والعلامات من فوارق التفكير والبواعث النفسية ، وقد تكون علامات اللغة مما يستعان به على جلاء الفوارق الفكرية وفوارق الشعور والاعتقاد

واللغات ـ فى تصنيف بعض علمائها ـ قد تنقسم على حسب الأجناس والسلالات التى تتكلمها ، ولكنه تقسيم يقع فيه الاختلاط لاشتراك الأمم فى لغة واحدة ، أو عائلة لغوية واحدة ، مع انتمائها الى أصول متباعدة فى أجناسها وعناصرها ، وخير من هذا التقسيم أن تقسم اللغات على حسب

تكوينهـا وتكوين الكلمات وقـواعد النحو فى مفرداتها وتراكيبها ، وهـو تقسيم يضبط الفوارق بينها ضبطا كافيا للموازنة بينها والمقابلة بين عوامل التقدم وعوامل الجمود والتأخر فى تراكيبها وتعبيراتها

وتنقسم اللغات من حيث التكوين الى لغات النحت ، وهى التى تتكون فيها الأسماء والأفعال والصفات بادخال المقاطع الصغيرة عليها أو الحاقها بها ، ولغات التجميع ، ولغات الاشتقاق ·· فلغات النحت هى التى تتكون فيها الأسماء والافعال والصفات بادخال المقاطع الصغيرة عليها أو الحاقها بها ، وتسمي هذه اللغات بالغروية فى اصطلاح الأوربيين: Agglutinative

ولغات التجميع هى اللغات التى يقع فيها النحت ويعمل فيها التنغيم عمله فى اختلاف المدلول مع الزيادات التى تدخل على الكلمات أو تضاف اليها ، ومن فروع هذه اللغات ما تتكون أسماؤه وأفعاله فى جملة تتألف من عدة مقاطع مرتبة أو غير مرتبة على نسق واحد فى جميع الكلمات ، ويغلب على اللغات التى تتكون هـذا التكوين أن تسـمى بالمجمعـة Polysynthetie مع وصفها بالغروية الى جانب التجميع

ولغات الاشتقاق هى اللغات التى يعم فيها الفعل الثلاثى فى كل مادة ، وتجرى قواعد العرف فيهـا على المخالفة بين الأوزان بحسب معانيها ، ويكثر فيها اختلاف الحركة فى أواخر الكلمات على حسب موقعها من الجملة ··

* * *

ويشيع النحت فى اللغـات الهندية الجرمانية ، كما يشيع التجميع فى اللغات المغولية ولغات القبـائل الأمريكية الأصيلة الاشـتقاق ·· فهو من خصائص اللغات السامية ، وتكاد اللغة العربية أن تنفرد من بينها بعمـوم الاشـتقاق واطراده مـع مراعاة الحركة على أواخر الكلمات جسب مواقعها من الجمل المفيدة ··

وربما اتفق اللغويون على قواعد عامة ، عملت فى تطور هـذه اللغات جميعا ولا تختص بها لغة منها دون سائرها · ومن هذه القواعد العامة أن الكلمات الانفعـالية التقليـدية أسبق من الكـلمات الارادية الفـكرية ، ويريدون بالكلمات الانفعـالية ما يصـدر عن الانسـان عفوا من الأصـوات

والصيحات التى تعبر عن الفرح أو الفزع أو الدهشة ، وما تكون الكلمة فيه أحيانا من قبيل المحاكاة الصوتية Onomatopaeic كاسم البلبل . والككو ، وألفاظ الدق والقطع والوسوسة وما جرى مجراها

ويريدون بالكلمات الارادية الفكرية كل ما يقصده المتكلم ويجرى فيه على القياس والاستعارة واطلاق القاعدة الواحدة على المتشابهات لفظا أو لفظا ومعنى ..

وأكمل اللغات على سنة التطور والتقدم فى الثقافة تلك اللغات التى انتظمت قواعدها الصوتية Phonologie وقواعدها الصرفية Morphologie وقواعد التراكيب والعبارات Syntax ويضاف الى الظواهر الصوتية والصرفية والعبارية فى قياس تطور اللغات ظاهرة التمييز والتخصيص فى الصفات اجمالا وفى المفردات على التعميم ، كالتمييز بين المذكر والمؤنث والجماد ، وبين المفرد والمثنى والجمع ، وبين جمع القلة وجمع الكثرة ، وبين الصفات العارضة والصفات الملازمة ، وهى جميعها من المزايا التى لا يحق لكاتب اللغة العربية أن يمر بها عرضا اذا جاز ذلك لمن يكتفى بسرد العلامات اللغوية ويغفل دلالتها عند تطبيقها على لغته وقواعدها

* * *

ففى صدد الكلام على التطور الانسانى ، وعلى تطور الانسان الناطق بصفة خاصة ، يحق للباحث أن يشير الى دلالة الدراسات اللغوية على مكان اللغة العربية من التطور وتحقيق الخاصة الانسانية الكبرى ، وهى خاصة النطق والتعبير

فقيام اللغة على القواعد الفكرية دليل لا شك فيه على سبق اللغة وتقدمها على لغات الارتجال الجزاف فى وضع الكلمات ، سواء بالمحاكاة الصوتية أو بالتكرار على غير قياس ، وشيوع القاعدة فى فعل كل مادة وفى تصريف الأسماء والصفات منها دليل على سبق التفكير فى التعبير وتعميمه على الأحداث والمعانى غير موقوف على أصوات الانفعال والمحاكاة ، ويتبع ذلك شيوع الاستعارة وامكان الجمع بين الوضع الحقيقى والوضع المجازى فى كلام المتكلم لتوسيع المعانى وبناء الكلمات على المضاهاة بين المدلولات

وفي قدم الانسان الناطق Homo Sapiens أقوال متفرقة يأخذ كل فريق من علماء الأجناس البشرية بقول منها ، ويبتعد بعض الابتعاد عن قول مخالفيه.

ورأى بيرى واليوت سميث ان الثقافات البدائية فى العالم المعمور تنتمى الى أصل واحد وهو أصل الثقافة بوادى النيل ، ومنه انحدرت الى القبائل القريبة ثم الى القبائل البعيدة ، فتخلفت معها وانتكست بانتكاسها أو تقدمت بتقدمها على حسب نصيبها من التقدم

ورأى الأكثرين أن نطاق الثقافة الأولى أوسع من ذلك فى أصوله ، وانه يشمل الحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ووادى النهرين وأقاليم الشمال من الهند والصين .

والرأى الذى يأخذ بالمفهوم المنطقى ولا يتكلف الاستقصاء والمقارنة بين الآثار يحكم بضرورة تقدم الانسان الناطق حيثما وجد فى بقعة من بقاع الأرض ، ولو لم ترتبط هذه البقاع برابطة جغرافية أو عنصرية تدل عليها الآثار والمخلفات ، ولا مانع عند أصحاب هذا الرأى من استقلال ثقافة المكسيك وثقافة اليابان ، وان جاز الاتصال بينهما قديما قبل عصور التاريخ ..

* * *

والآن ، وقد مضت هذه الأشواط الطوال على الانسان الناطق ، وعلى ثقافاته المتوالية ، يعتقد علماء الدراسات البشرية أن هذا « النوع » يقوم على مفترق الطرق بين وجهات الأمس جميعا وبين قبلة فى الغد المجهول قد تستقيم به على نهج غير مسبوق ، وتشرع له دستورا من العلاقات بين أقوامه وآحاده لم يعرف لها مثال فى حضاراته الغابرة أو حضاراته المعاصرة

ان الأشواط الغابرة قد انقضت – كما تقدم – على مرحلتين شاسعتين ، استغرقتا مئات الألوف من السنين : مرحلة الصراع مع الطبيعة ، ومرحلة الصراع بين الانسان والانسان للغلبة على سيادة العالم المعمور

ولا تزال المرحلتان ماضيتين فى عملهما السياسى والاجتماعى ، وفى عملهما الفكرى والأخلاقى ، فان تسخير الذرة انما هو امتداد لاستخدام النار بدأ قبل التاريخ ولم ينته الى غايته حتى أواسط القرن العشرين ، وأن

الصواريخ الموجهة بين القارات انما هى امتداد السلاح الحجرى قبل ألوف القرون ، ويتساءل المستطلعون للغد ــ من علماء الدراسات البشرية وغيرهم ــ هل من جديد ؟ ...

فان يكن شك فى الجديد المجهول ، فالأحوال المكشوفة للنظر تنبئنا أن القديم غير القديم ، وأن التغيير الذى طرأ على القديم انما هو هذا التقارب الدائم بين أجزاء العالم وهذا التشابك المتغلغل الى الأعمال فى مصالح الأمم والجماعات ، وهذه الوحدة العالمية التى لا تنفصل فيها جماعة من الناس بخطر يصيبها ولا يصيب معها القريب والبعيد من الجماعات ، شعوبا كانت أو طوائف وطبقات ..

* * *

بقى الصراع بين الأمم وتغير منه أنه كان بالأمس صراعا بين أمتين لتغليب احداهما على العالم المعمور حول الأمتين ، فأصبح اليوم صراعا بين شطرين من أمم العالم كله لتغليب نحلة اجتماعية أو « ايديولوجية » على العالم كله بسلاح القوة أو سلاح الدعاية ، ومصير هذا الصراع هو الغد المجهول الذى يطالع الانسانية باحدى حالتين : وحدة عالمية تجرى فيها دساتير الحكم والتفكير والأخلاق على سنة « التضامن » والتسامح ولو بين المتخالفين فى تفصيلات هذه الدساتير ، أو حرب جائحة تئول بالثقافة والآداب النفسية والعقلية الى الشتات والانتكاس ، وتعود بالأمم الى أوائل شوط جديد يعيدها كرة أخرى الى جاهليتها المتروكة منذ دهور

وعلى العلم اليوم أن يرصد ذلك البعث ، أو تلك القيامة ، بما يفتح له من وسائل النظر الى الواقع المعلوم والغيب المجهول

الانسان فى علوم النفس والأخلاق

أوسع المذاهب الأخلاقية تحتويه فكرة الحيوان الاجتماعى التى عبر عنها ارسطو بقوله : « ان الانسان مدنى بالطبع » وجعلته نموذجا وحيدا فى الكون حين وصفته بأنه « حيوان ناطق » ثم وصفته بأنه حيوان اجتماعى ، تلازم فيه صفة النطق صفة الاجتماع

فليس بين الأحياء على وجه الأرض حيوان يوصف بالنطق وبالفطرة الاجتماعية غير الانسان ..

واسم « الانسان » وحده باللغة العربية يغنى عن مذهب ، لأنه اسم يعتبر هذا الكائن الوحيد أساسا للألفة الاجتماعية حين تنسب لغيره . وقد لعب الشعراء بما فى الكلمة من الجناس اللفظى فقال أبو تمام :

لا تنسين تلك العهود فانما
سميت انسانا لأنك ناسى

وقال غيره :

وما سمى الانسان الا لنسيه
ولا القلب الا انه يتقلب

ولكن المقابلة بين الكلمات قديما وحديثا تبين لنا عن أصل هذا المعنى .. فالمكان الأنيس هو الذى يسكنه الناس ، والحيوان الأنيس هو الذى يألف الانسان فى مسكنه ، وغير ذلك من الأمكنة أو الخلائق فهو المكان الموحش وسكانه هم الوحوش

ويسرى هذا المعنى الى اللهجات البدوية الحديثة ، فيطلق أهل البادية فى الصحراء الغربية اسم « العشرية » على الشاطىء المأهول ، ويطلقون اسم الخلاء على ما وراء ذلك من رمال الصحراء التى لا تزرع ولا ترعى ، ولا يسكنها الانسان ولا الحيوان فى عشرة طويلة

ان الحضارة الأوربية ـ منذ عهد الفلسفة الاغريقية ـ لم تهتد الى

مذهب محيط « بالانسان الأخلاقى » أوسع من هذا المذهب ولا أقرب منه الى لباب المذاهب الأخرى التى ظهرت بعده فى هذه الحضارة

أما الحضارة العربية فصفة الانسان فى لغتها وتفكيرها ألصق به من أن تكون مذهبا تقابله مذاهب أخرى فى معناه أو غير معناه ٠٠ ان صفة الانسان فى هذه الحضارة العربية هى اسمه الذى لا ينفك عنه ، وما من عجب أن « تنبت » هذه الصفة من البادية حيث يتضح الفاصل بين خصائص الأنس وخصائص الوحشة غاية الاتضاح

وتكاد كل حضارة كبيرة أن تمتاز بطابعها فى تعريف الانسان الأخلاقى ، أو الانسان صاحب الضمير الذى يناط به الحساب ويوصف بالحميد أو بالذميم من الأعمال والعادات

فالانسان فى الحضارة الانسانية هو ظاهر وباطن كالوجود الذى خلق فيه ، وظاهره تحكمه قوانين السلوك العملى ويقاس بالمقايس الاجتماعية وبكل ما ترتبط به مصالح المجموع Pluralistie وتسمى هذه القوانين بآداب الميامزا Miamsa ويظن أنها وفدت الى الهند مع الشعوب الفاتحة التى جاءتها « بأدب العمل والحركة » فتميزت فلسفتها بهذا الطابع بين فلسفات الانزواء والهرب من الحياة

وباطن الانسان يستقبل باطن الوجود ، ويسمون فلسفته بالسانيسا Sannyasa أي فلسفة التجرد من المادة ، وطلب الخلاص من لعنة الولادة والموت بانكار الجسد وقمع الشهوات الدنيوية والعزوف عن صغائر الحاجات وكبائرها على السواء ، ويوشك أن يكون كل مذهب « فصامى » على هذا النحو مستمدا فى النهاية من أصوله الهندية ، وان كانت نهاية المذهب الى « اليوجا » التى تجعل الجسد والطبيعة كلها تبعا للرياضة الروحية ٠٠

وحضارة الصين تميز الانسان بالمعرفة وتوافق الحضارة الأوربية التى جعلته « حيوانا ناطقا » اجتماعيا كما توافق تعريفه العلمى الذى يعنى أنه مخلوق مميز ومخلوق صاحب ذوق واحساس Homo Sapiens على حد اسمه المأخوذ من اللاتينية ٠ ولكن المعرفة فى مذاهب الصين وهى « الزن » Zen ليست علوما منفصلة المقدمات والنتائج مشروحة القضايا والبراهين

وانما هي حالة كحالة الرشد الذي يبلغه الشيخ المحنك بالنسبة لغرارة الطفولة ، قوامها القدرة على مقابلة الحوادث والأشياء مقابلة التصرف الرشيد ، لأسباب قد تعرف عند الشرح والتفصيل وتعرف لها براهينها وأسانيدها بالمعاني والكلمات ، ولكنها حاضرة قبل ذلك حضورا ساكنا رصينا في الذهن بغير معاني أو كلمات ، وشعارها عند الحكماء « ان من يعرف لا يتكلم ومن يتكلم لا يعرف »

وهذا « الانسان » في مذاهب الحضارات الكبرى مقبول بتعريفاته وصفاته في جميع الديانات والعقائد الروحية ، ففي وسع العالم الديني أن يقول بصفة جامعة من هذه الصفات دون أن يعرض لمناقشتها ، أو يناقض اعتقاده الديني بتفسيرها على معنى من مختلف معانيها · وفي وسع الغالم المادي أن يفسر صفات الانسان على حسب هذه التعريفات دون أن يلتمس لها مرجعا وراء المادة والطبيعة محالا الى عالم الغيب أو ملموسا مدركا في عالم الشهادة ··

ففي وسع كل قائل بمذهب من هذه المذاهب أن يعلل أخلاق الانسان جميعا بتنازع البقاء مع أبناء نوعه أو مع الطبيعة وعناصرها

وفي وسعه أن يعلل الأخلاق الانسانية جميعا بغريزة حفظ النوع على سعتها ، أو بالغريزة الجنسية في نطاقها المحدود بعلاقات الجنسين

وفي وسعه أن يعلل تلك الأخلاق بطلب القوة والسيادة ، أو بطلب الأمن والدعة ، أو باستحياء الطبيعة وتصوير الانسان كل ما يحسه في خلده بصور الأحلام ومخلوقات الخيال

وانما يبرز خلاف الرأي بين الدينيين والماديين حين يبحثون في الملكات الفكرية التي تناط بها الأخلاق في كل تعريف من هذه التعريفات : هل تناط بحياة روحية من مصدر وراء الطبيعة والمادة ، أو هي منوطة فيه بوظائف الحياة الجسدية التي لا فرق بينه وبين الحيوان فيها غير فرق الدرجة و « الكيفية » ؟

مثال رأي الماديين يقول به ريدلي Ridley صاحب كتاب الانسان في حكم العلم Man, The Verdict of Science ويستند فيه الى آراء جماعة

من علماء الكيمياء الحية وعلماء البيولوجي وعلماء الاجتماع ، ويوجزه فى بضعة سطور فيقول : « ان الانسان ـ وان كان قد أبان عن قوى عقلية نفسية تعلو كثيرا على كل قوة يبين عنها كائن حى سواه ـ لا يزال نوعا حيوانيا له قرابته بالخلائق السفلى • ولم ير الاغريق الأقدمون داعيا الى فصل الانسان عن جمهرة الكائنات الحية التى كانوا يشاهدونها حولهم ، وقد أدخله أرسطو فى نطاق برنامجه الحيوى مع سائر الحيوان والنبات ، وجاء لينوس (١٧٠٧ ـ ١٧٧٨) بعد قرون عدة فنشر كتابه عن نظام الطبيعة سنة (١٧٣٥) وعد فيه نوع الانسان بين أنواع الحيوان ، وقد عده فى طبعة الكتاب الأولى بين ذوات الأربع من القردة والدب الرسيف •• وبوفون الفرنسى معاصر لينوس ، وضع الانسان فى المملكة الحيوانية واجترأ على أن يحتمل نسبته مع القرد الى أصل واحد ، وكان هذا أكثر مما يطاق فى عرف السلطة الدينية الفرنسية فخيروه بين النبذ وبين تعديل رأيه ، وهو تحيير لم يتعرض له لينوس فى البلاد السويدية • وقد وضع الانسان وضعه المحكم فى تعريف « الزولوجيين » فجعلوه بين أعلى الأحياء وهى ذوات الفقاريات ، وجعلوه بين هذه فى ذروتها وهى الحيوانات اللبون ، وأعلاها بعد ذلك طبقة الأوائل التى تشمل القردة والنسانيس • وهم يقسمون الأوائل أقساما أعلاها القسم البشرى Homo وهو القسم الذى كان ينتمى اليه بعض الأحياء ممن بقيت آثارهم فى حفائر الطبقات الأرضية ، ولكن الانسان الحديث وحده هو الذى يصدق عليه اسم البشر الناطق أو الحيوان العارف

* * *

فالماديون من البيولوجيين والزولوجيين يرون أن الارتفاع بالانسان الى ذروته المتفردة فى تقسيمات الحيوان كاف لفهم الفارق الكبير بينه وبين الأوائل Primates وبين هذه الأوائل وما دونها من أقسام الفقاريات وما دون الفقاريات ، ولا حاجة ـ مع هذا الفارق فى الدرجة ـ الى فارق آخر من عالم وراء المادة والطبيعة ، وهو فارق الروح

وقد اشتهر فى أواسط القرن العشرين علماء بيولوجيون من رجال الدين المسيحيين يسلمون كل درجة من درجات هذا التقسيم ولكنهم يقولون ان الفارق لا يفهم الا على وجه واحد ، وهو أن الفوارق جميعا بين درجات

الأحياء انما ينتهى الى التدرج بينها في الاستعداد للعقل والوجدان ، وان أرفع درجة يرتقى اليها الحيوان الأعجم لا تمنع أن تكون اعدادا للبنية الحيوانية أن تتلقى ما فوق ذلك من ملكات العقل والوجدان

وأشهر القائلين بهذا الرأى الأب بيير تيلهارد دى شاردين Pierre Teilhard de chardin البيولوجى المتخصص لدراسة علم الحياة والحفريات وأحد الذين أسهموا فى كشف انسان بكين وألقوا الدروس العلمية فى المعاهد الكبرى ، ومنها معهد اليسوعيين العالمى بالقاهرة ، وكتابه « ظاهرة الانسان » The Phenomenon of Man أحد الكتب العلمية الفلسفية التى عدت فى أواسط القرن العشرين بعض معالم الطريق فى اتجاه الفكر الحديث ، وقد سلم فيه تقسيمات علم الحياة وعلم الأحياء حرفا حرفا ثم عقب عليها سائلا : « اذا كانت قصة الحياة لا تعدو أن تكون حركة الى الوعى وراء نقاب من تركيب الأجهزة العضوية ، فالنتيجة اللازمة حتما عند بلوغ التركيب غايته المقاربة للانسان أن يتمثل هذا الاقتراب فى ابتداء ظاهرة الأهبة السيكولوجية وبزوغ ظاهرة الذكاء · ومن ثم يلقى الضوء على « المفارقة الآدمية » نفسها ، لأننا قد نشعر بالحيرة اذا لاحظنا قلة الفارق التشريحى بين الكائن البشرى وبين من دونه من البشريات على الرغم من سموه العقلى فى بعض مظاهره ، فانه فارق يقل حتى نكاد نتخطاه على الأقل من جانب أصوله ، ولكن أليس هذا بعينه ما ينبغى أن ينتظر ؟ »

ويجلو هذا الرأى بالأمثلة المحسوسة عالم آخر متدين ، هو الأستاذ روسل هاريسون الذى يقول فى كتابه عن مصير الانسان : « اننا لا نعرف الموسيقى اذا عرفنا كل دقيقة وجليلة من الأخشاب والمعادن والأوتار التى تدخل فى تركيب العود والقيثار والبيان · وبعض علماء الحياة يراقبون تغذية الحيوان ، ويلاحظون أن العواطف تتأثر ببعض الأغذية فتنقص أو تزيد ·· لاحظو أن الفأرة التى يقل المنجنيز فى غذائها تهمل صغارها ولا تعطف عليهم ، وانه لحسن منهم أن يلاحظوا هذا ويصلوا منه الى زيادة حصة الحيوان من ذلك الغذاء ، ولكنهم اذا جاوزوا ذلك فقالوا ان عاطفة الأمومة هى مقدار معلوم من المنجنيز فهم مخطئون ، وخطؤهم فى هذا الرأى كخطأ القائل ان نغمات الموسيقى أخشاب وأوتار ·· »

ويتبدل منحى الاستدلال المنطقى والعلمى ، اذن ، بهذا التفسير لمذهب النشوء القائل بارتقاء الحيوان والتشابه بين كل درجة من درجاته وما دونها وما فوقها فى الاستعداد لأهبة العقل والوجدان ، فلا بد أن يحدث ذلك للوصول الى الجهاز الحيوانى الصــالح للنهوض بمطالب الروح والوجـدان . وينقلب الأمر على الماديين فيصبح المادى وهــو المسئول أن يقول للمعترضين عليه من رجال الدين : لماذا يكون معيار التقدم زيادة الوعى على درجات تناسب الترقى فى تركيب البنية العضوية ؟ وكيف يتأتى هذا الانتظام فى الأداة وفى النتيجة ان لم يكن هنالك طريق مرسوم لغاية مقدورة ؟ ..

ومن العلماء غير الدينيين من أقنعته هذه الحجة بعض الاقناع ووافقت مذهبه فى اقتباس « الديانة » من العلم أو « الديانة بلا وحى » كما يسمونها فى اصطلاحهم المتفق عليه Religion without Revelation فقال علم أعلامهم وهو السير جوليان هكسلى فى تقديمه لكتاب ظاهرة الانسان : « اننــا معشر بنى آدم نحتوى فى أنفسنا كل ما فى الأرض من الامكانات الهائلة ، وفى مقدورنا أن نزيد ما يتحقق منها على شريطة الازدياد من العلم والمحبة » ..

وتكاد هذه الأسطر أن تكون نسخة ، معنوية ، من كلمات الختام التى انتهى اليها السير جوليان هكسلى فى كتابه « قنانى جديدة لخمرة جديدة » اذ يقول :

« ان صورة الانسانية المتطورة أعانتنى على أن أرى ــ من وجهة المبدأ على الأقل ــ ان الدين والعلم قد يتفقان ، وقد هدتنى الى مخــارج من العطف والفكر يحق لنا أن نطلق عليها اسم الدين ، ولكنها كانت لولا ذلك خليقة أن تكبت وتترك نسيا منسيا .. فهى بهذه المثابة تعلمنا كيف يسهم العلم فى تقدم الدين ، وقد قرر جدى فى مقالة عن اللا أدريه كلاما فى هذا الصدد كأنه غنى بذاته عن البرهان فقال : « ان كل انسان ينبغى أن يعطى سببا للايمان الذى يؤمن به . وان عقيدتى لهى الايمان بالامكانات الانسانية وأرجو أن أكون قد وفقت الى شرح أسبابها »

* * *

على أننا نجتزى بأحدث الأقوال التى انتهى اليها علاة الماديين بيانا

لمزية العقل في الحيوان الناطق . فلا نحسب أنهم قد استطاعوا أن يدعوا له مزية أقل من مزية الروح في ارتباطها بالحياة أو بالمؤثرات الحيوية على وظائف البنية الإنسانية على الخصوص ، وربما كان تعويلهم على دلالة الجهاز العصبي في الحيوان عامة وفي الانسان خاصة أشد من تعويل العلماء المتدينين على دلالة الارتقاء الى الملكات الروحية بمقدار الارتقاء في التراكيب الجسدية

فالأستاذ بافلوف المشهور بتجاربه الجسدية النفسية يقول : « كلما أحكم كيان الجهاز العصبي في بنية الحيوان كان أقرب الى التركز ، وكان أقدر على المزيد من التأثر بوظائفه العليا على التوزيع والتنظيم في أعمال البنية كلها » ..

وقد أثبت زملاء بافلوف وتلاميذه أن بقاء الحياة بعد توقف نبض القلب مرهون بسلامة المخ الذي يحتفظ بسلامته بعد توقف النبض بنحو ست دقائق ، وان الوعي الانساني له أثره حتى في تأثير السموم القاتلة ..

جاء في كتاب مسالك العلم الذي طبع في موسكو سنة ١٩٥٦ :

من العقاقير السامة القوية التسميم مادة البوتاسيوم سيانيد .. وهي سريعة الفعل تقتل على الأثر بمقاديرها الكبيرة ، وتسمم جميع الخلايا لأن الخلايا تحت تأثيرها لا تتشرب الاكسجين ولا تتنفس ، واذا حقنت به عروق قطة ماتت على الأثر كأنها أصيبت بصاعقة .. وقد حقنت به اثنتا عشرة قطة فماتت ست منها خلال بضع ثوان ، ولكن الست الباقية لم تتأثر كأنما حقنت بماء ، وهي الست التي خدرت بالأثير المعقم أثناء الحقن(١) .. »

الا أن سلطان الوعي على الانسان قد بلغ درجته العليا ، ويقول بافلوف فيما رواه عنه الكتاب نفسه : « عندما بلغ تطور العالم الحيواني منزلة الانسان نشأت اضافة هامة جدا في جهاز النظم العصبية العليا .. ففي الحيوان تتمثل وقائع العالم على الأعم الأغلب بما تحدثه من المنبهات التي تصل الى المخ فتبعث التنبيه الى حواس النظر والسمع وسائر الحواس

---

(١) Pathes of Science by L. Friedland

الحيوانية ، وهذه أيضا هى المنبهات التى تصل الينا عن طريق المؤثرات والأحاسيس والخواطر من العالم الطبيعى أو العالم الاجتماعى الذى يحيط بنا ، ما عـدا المؤثرات التى ينفرد بها الانسان وتؤدى له وظيفة التنبه لذلك التنبيه »

ولا يدعى « للحيوان الناطق » ولا للحيوان ذى الروح مزية أكبر من هذه المزية ، فهى تكاد أن تقرر للروح سلطانا على الجسد كسلطان « اليوجا » المعروف عند نساك الهند ، وتكاد أن تجعل الأخلاق جميعا مسائل عقلية تملك التأثير الأكبر ــ ان لم نقل التأثير المطلق ــ فى كيان الانسان وفيما هو أهل له من أهبة العقل والوجدان

مستقبل الانسان في علوم الأحياء

ان العلم الطبيعي حذر فى تقرير مذاهبه وأحكامه ، وأكثر ما يستبيحه لنفسه اذا وصل الى شىء لم يثبت لديه كل الثبوت ، ولم ير من أمانة العلم كتمانه واخفاءه ، أن يعلنه على أنه ظن مرجح وأن موضع الشك فيه قابل للدفع والتوضيح بدليل منتظر يذكر أسباب انتظاره • وكذلك فعل دارون عند اعلانه لنظريته فى تحول الأنواع

واذا وازنا بين حذر العلم فى الحكم على الماضى وحذره فى الحكم على المستقبل المحدود ، فهو فى الحكم على المستقبل أحذر وأقرب الى التردد بل الى التوقف عن مجرد الظن الا مشفوعا بالاعتذار • ويرى هذا الاختلاف بين حذره من أحكام الماضى وحذره من أحكام المستقبل فيما قرره عن فعل التطور أمس وفعل التطور غدا •• فان علماء النشوء استباحوا لأنفسهم أن يرجحوا وقوع تحول الأنواع وتقدم الانسان جسدا وعقلا منذ ألوف السنين ، ولكننا لا نعلم أن واحدا منهم أباح لنفسه أن يتنبأ بتطور واحد سيحصل غدا لا محالة ، أو بتحول واحد مرجح لا يقابله ترجيح مثله الى النقيض

وعذرهم من هذا التهيب مفهوم ، وهو أدل شىء على أن دلائل التطور الماضى لم تزد عند القائلين بها على أن تكون بعض الظنون الراجحة ، ولم تبلغ عند عالم جدير بصفة العلم أن تكون علم يقين ••

عذرهم ان العالم يرسم الطريق كلما تكلم على الماضى ليس الا ، ولكنه ينشىء الطريق ويمشى فيه كلما أنشأ جزءا منه حين يسير الى المستقبل ، ولا يتساوى من يفتح طريقا ومن لا يزيد عمله على رسم طريق

ان كان بين علماء العصر من يحق له أن يعلن رأيا جازما عن مستقبل التكوين الانسانى كما يتمثله علم الحياة فذلك هو « البيولوجى » الكبير الاستاذ « مداوار » Madawar صاحب جائزة نوبل للعلم الطبيعى « سنة ١٩٦٠ » وصاحب البحوث العالية فى تهيئة جسم الانسان لقبول الأجسام الغريبة التى تنفر منها خلاياه على الرغم من تقسيم الأدميين الى فصائل وعائلات فى تكوين الدم وأنسجة الخلايا ، فانه قد تبين له من تجارب

يضيق بها الحصر أن الفرد الانسانى وحدة لا تتكرر فى مكونات بدنه ، وان كل حكم على بنيته من طريق التقسيم الى فصائل وعائلات فهو تقسيم قابل للخطأ عند اجراء التجارب الطبية لنقل الأنسجة والاعضاء من بنية الى بنية ..

وقد سئل هذا العالم الكبير أن يلقى محاضرات ريث Reith عن (سنة ١٩٥٩) فقال انه لم يكن ليبلغ به الادعاء أن يلقى هذه المحاضرات بعنوان مستقبل الانسان لولا انه عنوان مقترح عليه ، ولكنه على هذا لم ينفرد بالرأى فى مسألة من مسائل البحث المقترح ولم يعلن رأيا واحدا قبل أن يراجع فى موضوعه زملاءه الثقات فى مسائل ذلك الموضوع على التخصيص ، وقد ذكرهم بأسمائهم فى تمهيده للمحاضرات . وبعد أن ذكر فكرة « البيولوجيين » الذين يحسبون أن تعدد النماذج الفردية قد يحول دون التوليد لاخراج النسل على نمط مقدور ، مضى يقول : « ان الأمر يدعو الى التساؤل : هل يتأتى للانسان أن يمضى متطورا غدا كما تطور بالأمس ، أو أن هناك أسبابا تدعو الى الظن بأن هذا التطور قد بلغ أقصى مداه ؟ ..

وطفق الاستاذ يقلب وجوه النظر ويعادل بينها حتى بلغ نهاية محاضراته وهو لم يجزم قط بمصير محدود ، سوى أنه رجح بعض الفروض ولم ينس أن يذكر أنها فروض تحيط بها الشكوك والاحتمالات ..

قال ــ مثلا ــ ان الاحصاءات فى بريطانيا العظمى دلت على تكاثر نسبة المواليد الذكور بعد الحروب ، وان بعضهم فسر ذلك بأن الطبيعة تعمل لتعويض النقص على عادتها فى كثير من المشاهدات ، فهو تفسير ليس بالغريب ، ولكنه قد يبطل اليقين به ان هذه الزيادة أيضا قد شوهدت فى أمم لم تفقد أبناءها فى الحرب ولم تكن من الأمم المقاتلة

وقابل الأستاذ بين طرائق الاحصاء ، ومنها طريقة المقارنة بين سنة وسنة ، وهى غير وافية بالمقارنة الدقيقة ، وبين طريقة اختيار طائفة من الرجال والنساء وتسجيل ما يحدث لهم على مدى الفترات الطوال ، كل عشرين أو ثلاثين سنة ، وقال انها طريقة لم تكن ميسرة الوسائل قبل السنين الأخيرة .. ولكنها تيسرت الآن لانتظام الاحصاء فى شتى مظاهر الحياة ومنها تسجيل نسبة الجنسين وتسجيل معدل العقود الزوجية وسن الذكر وسن الأنثى عند الزواج ، وتسجيل هذه السن عند ولادة كل مولود أو

مولودة ، وهذه الطريقة تفيد ما لا تفيده الطريقة الأولى عند تعليل تعويض المواليد للوفيات ، لأنها تبين الوقت الذى تحدث فيه أوائل المواليد وتبين للقائمين بالاحصاء هل يزيد العدد لزيادة الخصوبة العائلية أو لزيادة الوقت المحدود للاحصاء ؟

ولم يتقبل العالم البيولوجى بالارتياح عبارة المتشائمين الذين يفهمون من كلمة الانحدار أو هبوط الاستعداد الحيوى أن النـوع الانسانى سينحدر حتى ينقرض ، وقال ان العبارة « متحف من النقائض » فاننا اذا استطعنا بالعناية أن نحتفظ الى اليوم بأناس كانوا ــ لولا ذلك ــ قد أصبحوا أمواتا قبل عشر سنوات ، فنحن كيفما كانت الحال نعيش اليوم ولا نعيش قبل عشر سنوات ·· كذلك يمكن أن تعصف نازلة من النوازل بالعقاقير التى تداوى بعض الأمراض ، فلا يكون مآل ذلك الا أن الذين سيموتون غدا قد يموتون اليوم بدلا من ذاك

ومن دواعى تصعيب النبوءة عن المستقبل أن التغييرات المحتملة بين أفراد البشر أكثر جدا من التغييرات التى تقع فعلا ، وان اختلاف اثنين من البشر فى الواقع قد يعنى قبل ذلك افتراض عشرات من الأفراد مختلفين كذلك الاختلاف أو أبعد وأخفى ·· ومن أقدم الأسباب المعلومة عند الجينيين Geneticists لاحتمالات التغييرات المتعددة ما يسمى بقابلية المقايضة بين الصبغيات ·· وهى عملية يمكن أن تتم اذا كانت كلتا الصبغيتين مماثلة للأخرى تماثلا يميل بها الى الامتزاج ، ثم اعادة الامتزاج على أشكال طارئة مبتدعة · وربما جاء اليوم الذى يستطيع فيه الكيميون والطبيعيون الحيويون أن يحدثوا هذا الامتزاج ، وخليق بهذا أن يذكرنا أهمية التحول الفجائى Mutation وما يترتب على امكان احداثه من تغيير النسل بالانتخاب الصناعى · والمشاهد من أطوار جراثيم « البكتريا » أن لها خاصة عجيبة وهى خاصة الاحتياط لمعالجة الأضرار التى قد تطرأ فى المستقبل ، وربما وجدت فى الناس خاصة كهذه يدل عليها نجاة فريق منهم من الأوبئة والعلل المنتشرة ، وكون ضرب من المناعة يزود خلاياهم الناسلة بمثل ذلك الاحتياط لمقاومة آفات المستقبل · وقد يدهش السامع ــ بعد كل ما عرف عن الوراثة ــ أن يعلم انه لم توجد بعد فكرة وافية عن الأمور التى تفعل والأمور التى تجتنب لتحسين نتاج الحيوان بالانتخاب الصناعى ··

ويؤخذ من استطراد العالم البيولوجي في أمثال هذه العوامل الجينية أن العلم يها يفتح آفاقا من فروض التغييرات المحتملة يقصر عنها وسع النبوءة والتوقع ، وان الاستعانة بالمعارف المستحدثة تمكن الانسان من معرفة وسائل التحسين في الذرية ووسائل اتقاء الانحطاط فيها ، ولكن هذه الوسائل لم تضبط ــ بعد ــ على يقين من نتائجها

ولكن ترقية النسل لا تعتمد كلها على ضبط هذه الوسائل الجينية ، لأن هناك وسائل التفكير أو وسائل الخصائص التي قد تنتقل بالوراثة من الدماغ ..

قال الأستاذ مداوار في محاضرته الأخيرة : « انني في هذه المحاضرة الأخيرة سأبحث في الكائنات البشرية عن وسيلة جديدة ــ غير الوسيلة الجينية ــ للوراثة والتطور مبنية على خصائص وحركات مصدرها الدماغ

« وان وجود هذه الوسيلة أمر تعرفونه جيد المعرفة .. فلم يكن البيولوجيون هم أول من أفضى الى أناس سراع الى التصديق بأن الكائنات البشرية ذات أدمغة ، وان الأدمغة تحدث فروقا شتى ، وان الانسان قادر على أن يؤثر في الأعقاب الآتية بوسيلة غير الوسيلة الجينية ، وان كثيرا مما قرأت في أقوال البيولوجيين ليلوح عليه أنه لا يفيدنا بشيء يزيد على ما ذكرت لكم وانى لأحس أن البيولوجي مطالب بأن يسهم بنصيب يساعد على فهم الأصول البعيدة التي تتفرع عليها الأخلاق وضروب السلوك ، وهو ما أحاوله الآن .. ولا بد أن تأتي هذه المحاولة مستندة الى التفكير « الصلب » لا التفكير « الناعم » .. وأعنى بذلك تفكيرا يعرف له حيز واقع وتدرك له تفصيلات بينة ، مقابلا للتفكير الذي يجد متنفسه في الكلمات المونقة والعبارات المفخمة الشعرية

« وأرانى أقارب الوضوح البين اذا عبرت عن ذلك بمثال محسوس ، وأسألكم أن تعيدوا الى الذكر ذلك الفارق الهام بين الصندوق العازف والجهاز الحاكى « الجرامفون »

« فالصندوق الغازف جهاز يحتوى قالبا أو أكثر من قالب من قوالب الجرامفون يعيد للسمع كل ما أودعه عند لمس زر معلوم ، واسمى لمس ذلك

الزر بالباعث أو المحرض ··· وهو باعث مقصور على القالب الذى يؤدى الى سماعه ، فهو مؤثر واحد يأتى بأثر واحد بينهما هذه العلاقة المتبادلة · واننى أبعث الصندوق بلمس الزر – أى زر – الى احداث نغمة موسيقية ، ولكننى اذا اخترت زرا معينا فالباعث هنا يدعوه الى احداث نغمة معينة دون سائر النغمات الموسيقية ، والتوجيهات الموسيقية فى هذه الحالة جزء من الصندوق وليست جزءا من البيئة المحيطة به ، وكل ذلك راجع الى تركيب الصندوق فليس ضغطى على الزر توجيها للصندوق فى أداء نغماته الموسيقية

« ··· والآن تقابلون بين هذا وبين عمـــل الجرامفون أو أية أداة أخرى تؤدى لنا النغمات الموسيقية .

« ان لدى قوالب موسيقية أقوم بتحريك بعض المفاتيح وأضع القالب على الجرامفون والقالب منقول اليه من البيئة المحيطة ·· فذلك باعث كباعث الصندوق العازف الى أداء الأنغام الموسيقية ، ولكنه يضيف الى الباعث هناك شيئا أكثر من ذلك ·· وهو الخطوط المرسومة التى تمر بها الابرة فتبعث منها الأنغام المؤداة ، وليس لدى الجرامفون مصدر للتوجيهات الموسيقية وانما هو القالب الذى جاء الى الجرامفون من البيئة الخارجية ، فكانت علاقتى به – اذن – علاقة تعليمية ، لأننى – بمعنى من المعانى – قد علمته كيف يؤدى النغم المسموع

« ·· ونحن فى الحالتين صنعنا الصندوق وصنعنا الجرامفون وأعددنا كلا منهما للعمل الذى يؤديه ، ولكن هـــذه الحقيقة لا تقـــدم ولا تؤخر فى مغزى الاختلاف بين عمل هذه الأداة وعمل تلك ·· فلنذكر هذا الاختلاف فيما يلى من المقارنات ··

« ··· منذ عشر سنوات اتجه البيولوجيون الى العلم بأن الأجهزة الحية العليا أشبه بالصندوق العازف منها بالجرامفـــون ، وان كل ما كنا نحسبه من قبل حركات تعليمية هو فى الواقع حركات تنبيهية ليس الا ·· أى ان تحريك الكائن الحى يحدث شيئا هو نتيجة تركيبه وليس – كما كان مظنونا – نتيجة شىء من الخارج ·· فليست الآثار المستقرة فى الجهاز الحى خطوطـــا مرسومة على قالب يديره ذلك الجهاز ، ولكنها آثار جينية مودعة فى الصبغيات وحوامض الخلايا »

« واسمحوا لى أن أبين بعض الأمثلة لهذه الحقيقة :

« فأقدم الأمثلة وأشيعها مثل التغيير الذى يعترى جمهورا من الناس عرض له التطور ، فكيف نصنف البواعث التى تفعل فعل التطور فى الأجهزة الحية ؟ .. ان النظرية اللاماركية التى تقول بوراثة الصـــفات المكتسبة هي على أعمها تنظر الى البواعث التعليمية ، تعنى أن البيئة على نحو من الأنحاء قادرة على اعطاء تأثيرات تعليمية للأجهزة الحية ، وان هذه التأثيرات اذا سرت فى البيئة سريانا حسنا أمكن أن تنتقل بالوراثة الى أعقـابها .. فالحداد الذى طالما ضرب به المثل لتعزيز هذه الملاحظة ، يستفيد قوة فى ذراعيه من طرق الحديد فتؤثر هذه القوة فى الخلايا التى تنشىء بذوره المنوية وتنتقل من ثم الى أبنائه ، فيولد هؤلاء الأبناء وفيهم استعداد لتربية الأذرعة القوية .. ولست أفيض فى مناقشة التجارب التى تكررت لامتحان العوامل اللاماركية .. وحسبى أن أجملها فأقول انها جميعا أسفرت عن نتائج غير لاماركية ، ودلت على مؤثرات تنبيهية وليست تعليمية

« ومثل آخر من الأمثلة الشائعة هو مثل البكتريا اذا أعطيت طعاما غير طعامها المألوف أو تعرضت لعقار مضر بقوامها ، فانها فى هذه الحالة قـد توفق بين قوامها وبين الطعام الجديد أو تزيل ضرر العقار وتلغى مفعوله ، وقد سميت هذه العملية زمنا باسم تدريب البكتريا على اعتبار أنها عملية قادت البكتريا الى تعلم طريقة جديدة لتوليد الخمائر من طعامها ، ولكنهـا تسمية لم تلبث طويلا حتى تبين خطؤها وتبين ان هذه العملية وسيلة تنبيهية وليست بالوسيلة التعليمية . فليس فى وسع البكتريا أن تنشىء خميرة غير التى هى مفطورة على انشائها ، وكل ما حدث عند تغيير الطعام انه نبه الاســتعداد الذى لم يكن له منبه قبل ذلك ، وهو استعداد كامن فى التركيب وليس بالتعليم المستفاد من فعل الطعام أو العقار ..

« ويصدق هذا على تطور الحيوان .. فقد كثر الجدل زمنا بين أنصار القول بالتنبيه وأنصار القول بالتعليم ، اذ كان الأولون يرون أن كل تطور فانما هو نشر لما كان مطويا هناك ، وكان المتطرفون منهم ــ وطالما تعرضوا للسخرية ــ يرون أن بذرة النســل انما هى انســان صغير . أما الآخرون فعندهم أن العوارض التى تعمل فى تكوين الجنين انما هي بواعث تعرض

له مما حوله . ولعل الحقيقة وسط بين هذين الطرفين ، فالعوامل الجينية تتم لأنها كامنة هناك ولكن استيفاءها رهين بالعوامل الخارجية عنها ..

« والى نحو سنتين كنا نشعر أن ضربا من النمو يتم فى أجهزة الحيوانات العليا بفعل البيئة على اعتبارها موجها أو معلما ، على النحو الذى نشاهده عند تلقيح الأنسجة بمادة خارجية ، تؤدى الى انشاء البنية لمادة بروتينية خاصة .. أغلب ما يكون عملها أن تحول دون تلك المادة والاضرار بالبنية ، مما يكون له أثره فى الوقاية من عدوى الأمراض ..

ومع البوادر التى توحى بأن هذه العملية تعليمية ، أخذ كثيرون من البيولوجيين يشكون فى ذلك ويعتقدون أنها لا تعدو أن تكون تنبيهية فى جوهرها .. ونعود الى الصندوق العازف مرة أخرى ..

« وبعد .. فأى ظفر يتاح لنا لو أمكن البنية أن تتلقى التعليم من البيئة وأن نجعل هذه البيئة قادرة على أن تعلمها ولم يكن قصارى قدرتها أن تنبه ما فيها ؟ .. ربما قال لنا زائر قدم الى هذا الكون من كون غريب عنه قبل بضعة ملايين من السنين ، نعم .. انه لظفر عظيم ، واننى لألمح سره وأفهم ان هذا السر يحل مسألة التوفيق والموافقة بين الحى والبيئة ، ويجعل الكائنات الحية مهيأة للنمو والتطور على صورة أوفى وأسرع من صورة التطور بفعل الانتخاب الطبيعى ، لولا أنها صعبة جدا ، وانها ليست مما يستطاع ..

الا أنكم تعلمون أنها استطيعت ، وان هنالك جهازا قابلا لأن يتلقى التعليمات من الخارج وهو جهاز الدماغ

« واننا لنعلم القليل من أسرار هذه المسألة ، وهو ما نفهم منه مقدار تعقدها واشتباك وظائفها .. فان تطور الدماغ قد كان آية رائعة فى هذا الوجود ، وهو — ولا ريب — أعظم الآيات بعد آية الحياة نفسها ..

« على أننى أظن أن الدماغ انما نشأ فى مبدأ أمره كذريعة للتنبيه ، وان السلوك الغريزى انما هو ذلك السلوك الذى تستجيب به البنية لتنبيه المؤثرات الخارجية ، فاذا لقحت دجاجة بهرمونات الذكر أخذت هذه الدجاجة فى سلوك كسلوك الديك لم يكن أصله بعيدا من تكوينها

« ولكن وظائف الدماغ العليا تستجيب للمؤثرات التعليمية فنحن نتعلم

« .. ولا يقف الأمر عند هــذا الحد بل يسرى من جيل الى جيل كمـا نسرى الخطابات المتسلسلة التى تبدأ بكتابة خطاب الى أحد الناس ، وتسأله أن يبعث به الى غيره ويوصى ذلك الغير بأن يبعث به كذلك الى آخر وآخر الى غاية الشوط الميسور ، فيتعلم الأب ويعلم ابنه كيف يعلم حفيده وابن حفيده وهكذا ، وهكذا ، على مدى الأجيال ..

ومن المهم جدا أن نميز بين أربعة أدوار فى تطور الدماغ : أولها الجهاز العصبى وقد نشأ لتنبيه البنية .. ثم دور الدماغ وفيه تتلقى الكائنات الحية التعليم من الخارج ، ثم دور الوراثة من طريق غير الطريق الجينية يأتى من قدرة الدماغ الدقيق التركيب على شىء أكثر من تلقى التعليم وهو تسليمه الى آخرين . وانه لعامل خاص بالنوع الانسانى لعله قام بعمله الهام منذ خمسمائة ألف سنة .. أما الدور الرابع فهو شديد الشبه بالدور المتقدم ؛ ولكنه لا يماثله تمام المماثلة ، ونعنى به دور التطور الذى يشمل الجماعة كلها وقد تضاعف عمله منذ مائتى سنة ..

ونســأل بعد هذا ما الذى نستفيده مما تقدم ؟ فنقول ان الاغترار بالمشابهات خطر لأنه يغض من أثر الاختلافات .. فالمشابهة بين تطور الفرد وتطور الجماعة لا يجعلهما عملية واحدة فى مجرى الحوادث ولا فى عواقبها .. فصناعة الحداد تورث ولا شك ، ولكن وراثتها من طريق الناسلات والصبغيات ــ أو ما نســميه بالطريق الجينية ــ غير مســتطاعة .. وفائدة التمييز بين التطور الفردى وتطور الجماعة أن نبعــد عن أذهاننا فكرة القوانين الطبيعية التى تعمل فى الحالتين على سنة التغييرات الجينية ، أو الفكرة التى تقول لنا ان الجماعة لا بد أن تولد وأن تموت كما يتعاقب الموت والولادة على الكائنات الحية ، أو الفكرة التى توحى الينا ترك الجهد فى تحسين الجماعة اعتمادا على أن الطبيعة أخبر وأدرى

* * *

« ونحن اذن نستطيع أن نهذب الطبيعة ، ولكن استطاعتنا هذه مرهونة بمقدار ما نملك من وسائل الغوص على أسرارها وخفاياها ومثـابرتنا على زيادة محصولنا من العلم بما يجرى فيها .. ولست أقول ان الانسان مدفوع بغريزة تحفزه الى الكشف والاستطلاع وانه مسخر أبدا فى طلب الحقيقة ، فان الحيوان أيضـا مزود بما يمكن أن يســمى على الاجمال حبا للتطلع أو

التجسس ، ولكن هذه الغريزة وان بلغت غايتها من الاحكام والقوة لا تقيدنا ولا ينبغى أن نكون مدفوعين دفعا الى الاستطلاع ، وان أولئك الذين يبسطون لنا قوانينهم عن مقاصد الطبيعة يقاربون حدود الخطر والوبال ‥ وما علينا الا أن نذكر عاقبة الدعوى التى زعم أصحابها أن الانسان مزود أبدا بنزعة النضال والقتال ‥ ونحن نقابل بيننا وبين أنواع الحيوان الأخرى ، فنرى على التحقيق أن الفارق بيننا وبينها فى هذه الخصلة هو أن الأجراس التى تدق لنا دقات التنبيه انما هى كأجراس الماشية بجبال الألب معلقة بأعناقها فلا لوم على أحد سوانا اذا لم نسمع منها ما يرضينا »

* * *

هذه خلاصة مقتبسة من كلام العالم البيولوجى اقتباسا تحرينا فيه تصوير معناه ولم نلتزم حروف نصوصه ، ومجمل هذا المعنى أن مستقبل الانسان الطبيعى مستكن فى كيانه وانه يملك وسائل التهذيب الاجتماعى ولكنه لا يقدر على احداث أثر لم تكن مولداته مطوية فى استعداده ، وان الأجراس التى تدق له دقات الخطر على حياته النوعية أو الفردية هى نفسها جزء من تلك الحياة ، وكذلك العلاج الذى يحتال به على الخطر بعد الانتباه اليه انما هو من عقار أرضه ووصفات طبه .

دواؤك منك وما تشعر   وداؤك منك وما تفكر

* * *

وقبل الاستاذ مداوار بخمس عشرة سنة ، عند نهاية الحرب العظمى تقدم للاجابة على هذا السؤال عن مستقبل الانسان عالم بيولوجى من المؤمنين بالنشوء والتطور ، يضارع مداوار فى منزلته العلمية وشهرته العالمية فكتب عن القدر الانسانى Human Destiny سلسلة من البحوث الحديثة على منهج غير منهج زميله المتأخر ، لأنه يفترض الغاية المرسومة للتطور ، ويرد مقاصده جميعا الى عناية الهية تتلخص حكمتها الهادية فى أنها « تريد » ولكنها تعلم الخلائق أن تريد لنفسها وأن تترقى بالارادة على حسب جهودها ، مع الهداية التى تلهمها ولكنها لا تلهمها الا لكى تعينها بالالهام على أن تعمل عملها وتسلك سبيلها .

ومؤلف كتاب القدر الانسانى هو العالم البيولوجى الجليل ليكونت

دى نوى De Nouy الذى يقول ان استمرار النشوء والقول بالمصادفة مفارقة لا تعقل ، وهو يشبه مجارى النشوء فى الكون بجداول البحيرة التى تنصب من فوق الجبل الى مستقرها فى الأودية ، فتمر بالصخور والرمالة وتلتقى أو تفترق وتحمل معها ألوانا من الرواسب والطوافى تخالف بينها آخر الأمر حتى كأنها ينابيع لم تصدر من أصل واحد ولم تجر على سنة واحدة ، والواقع أنها ليست كذلك وانها فى أصلها من بحيرة واحدة وفى حركتها خاضعة لقوة واحدة هى قوة الجاذبية

وعند « دى نوى » أن نظرية لامارك عن التوفيق بين البنية والبيئة ، ونظرية دارون عن الانتخاب الطبيعى ، ونظرية التحول الفجائى فى رأى نودين ــ دى فرى Nudin — De Vries كلها صالحة للمساهمة فى تفسير عوامل النشوء والتطور

قال : « ونعيد مرة أخرى أن التطور لن يكون مفهوما الا اذا سلمنا أنه خاضع لغاية ، وانها غاية بعيدة مقدورة »

ثم ختم بحوثه قائلا : « ان بعضهم قد يرى أننا لا نزال على مسافة بعيدة من اليوم الذى يصبح فيه الانسان وقد تطور التطور الذى يجعله أهلا لأن يشعر بضميره ، وألا يكون كل حقه فى المعاملة أن يعامل كما يعامل الطفل القاصر ، وربما صح هذا ولكنه ــ اذا صح ــ كان خليقا أن يصبح سببا للاتجاه بجهوده الى تلك الغاية : « وان الانسان المتطور قد بلغ حالة من نمو الضمير تيسر له أن يوسع أفق النظر وأن يلمح الدور العظيم الذى يضطلع به فى انجاز غايات التطور ، فليس الانسان كذلك الحيوان الأعمى الذى يصل فى أعماق البحر ولا يدرى أنه يبنى بعمله جزيرة مرجانية سوف تعمر بالكائنات التى هى أصلح منه وأعلى ، لأن الانسان يعمل وهو يعلم أنه رائد للسلالة المقبلة التى ستكون على وجه من الوجوه وليدة سعيه وجهده .. وعلى كل انسان أن يذكر أن القانون قد كان ، وسيبقى كما كان ، أن يناضل وأن النضال لم يهدأ لأنه تحول من الميدان المادى الى ميدان الروح . وعليه ألا ينسى أن كرامته باعتباره كائنا آدميا ، ينبغى أن تصدر من جهاده فى تحرير نفسه ، وأن ينقاد فى ذلك الجهاد لأعمق البواعث من قرارة وجدانه ، ولا ينسى أبدا أن الشرارة الالهية

كامنة فى تلك القرار ، فى قرارته دون غيره ، وانه هو حر قادر على أن يهملها وأن يقتلها ، قدرته على أن يقترب من الله وأن يعرب عن غيرته على العمل مع الله والعمل فى سبيل الله »

ولقد آل تطور الانسان عند غير البيولوجيين الى تطور الانسان الصانع وقيام الصناعة الكبرى مقام الصناعات الصغيرة التى بدأت منذ مئات القرون ، فجعلت الانسان سيد الخليقة حين جعلته قادرا على العمل بيديه واختراع الآلة المصنوعة لانجاز عمله · وستفعل الصناعة الكبرى بأيدى المجاميع البشرية فعل الأداة الحجرية قبل مئات القرون بيد الانسان الأول ، اذ لم تكن له قدرة على الحيوان الأعجم غير تلك الاداة

ولا نخال أن أحدا عبر عن هذا الرأى تعبيرا أدنى الى الفهم من تعبير الاستاذ رسل هاريسون فى كتابه : « ماذا يكون الانسان » ·· فانه ترك لغة « بابل » الحديثة : لغة البلبلة العلمية بين الفروض الصريحة والفروض المبهمة والمقابلات من هنا والمعارضات من هناك ، ووضع أمل التطور حيث ينبغى أن يوضع ان كان له موضع على الاطلاق ، وذلك هو موضعه من « الشخصية الانسانية » ···

فلا مستقبل للانسان ان لم يكن مستقبلا لشخصيته الكاملة ، ولا تطور لهذه الشخصية ان لم تكن شخصية « ذات جوانب » ولم تكن جوانبها براء من النقص والخلل ·

ان الشخصية الانسانية عاطفة ، وعقل ، وضمير ، وليست مجرد أعضاء ووظائف وخلايا وأعصاب · ومعنى تطور الانسان فى الذهن أن تتم له هذه الشخصية بعد ما نبتت له بذورها مع أطواره الماضية ، وليس فى الواقع ما يمنع « الشخصية الانسانية » أن تتحقق كما تحققت فى الذهن ، فكرة قابلة للتمام ··

عود على بدء

.. بعد هذا الشوط فى عرض المذاهب والآراء عن الانسان نسأل على ثقة من الجواب .

– هل صحيح أن القرآن يلقى بالانسان غريبا منقطعا فى القرن العشرين ؟ ..

والجواب الذى لا تردد فيه ، ان القرآن – على النقيض من ذلك – يضع الإنسان فى موضعه الذى يتطلبه ، فلا تسعده عقيدة أخرى أصح له وأصلح من عقيدة القرآن ، لأن عصر العلاقات العالمية لا يتطلب « مواطنا » أصح وأصلح من الانسان الذى يؤمن بالأسرة الانسانية ، ويستنكر أباطيل العصبية ومفاخر العنصرية ليعترف بفضل واحد متفق عليه فى كل أرض وبين كل عشيرة آدمية .. وهو فضل الاحسان فى العمل واجتناب الاساءة ، وليس لهذا العصر حق على بنيه أصح وأصلح من حق الشعور « بالمسئولية » والنهوض بأمانة التكليف والاحتكام الى العقل فى كل ما يسعه العقل ، ثم اطمئنان الضمير الى الخير فيما خفى عليه من شئون الغيب المجهول ، ولا بد فى كل عصر حديث أو قديم من غيب مجهول ..

ان القرآن يعطى القرن العشرين انسانه الذى ليس من انسان أصح منه وأصلح لزمانه ، فاذا آمن هذا الانسان بالله وبالنبوة فليس أصح ولا أصلح لعصر الوحدة الانسانية من الايمان برب واحد للعالمين ، وبنبوة تختم النبوات – بعد الايمان بهذا الاله الواحد – لتسلمه الى عقله وضميره ، وتسأله عن اصلاح نفسه واصلاح دنياه بما يدعوه اليه قوام الروح والجسد وطيب الحياة فى الدنيا والآخرة

واذا كان هذا هو انسان القرآن بحرفه ومعناه ، فلا حاجة بالناقد المنصف الى حظ كبير من الترفع لينظر من عل الى أولئك المتعالمين المتوقرين أولئك الذين يزعمون أنهم قابلوا بين العقائد ، فخرجوا منها بمقطع الرأى

وقال لهم مقطع الرأى هذا ان القرآن نسخة مكررة - بل مشوهة - من هذه الديانة أو تلك الديانة ، وانه لم يحدث بعدها جديدا فى عالم الروح وعالم العقيدة ، وهو الذ هدى العالم فى أمر الاله وفى أمر النبوة وفى أمر الانسان الى هذا الفتح المبين .. وما من بقية تبقى فى لباب العقيدة بعد هذا الجديد الدائم فى أمر الحقيقة الالهية وأمر الرسالة والهداية ، وأمر الكائن الحى المميز بين مخلوقات الله أجمعين : وهو هذا الانسان الذى تخاطبه الأديان ..

* * *

وقد رأينا مدى الموافقة بين عقائد الحكماء وآيات القرآن فى كثير مما عرضناه أو أشرنا اليه فيما تقدم . وقد نرى - أهم من ذلك - أن آيات القرآن تفسح للعقل الانسانى كل طريق من طرق البحث والتأمل ، فلا تصده عن طريق قط يترقب منه معرفة نافعة توافق المعارف الشائعة أو تناقضها ، فما من طريق يسلكه الباحث الصادق هو طريق مغلق أمامه بحكم من أحكام القرآن ، الا أن يكون الطريق الذى لا يفتحه يوما دين يدعو الى الله : وهو طريق الالحاد

ففيما تقدم من شروح حكماء الاسلام ما هو أعجب من فروض النشوئيين بعد القرن التاسع عشر عن الأحياء ودرجاتها من البهيمية الى القرد الى الانسان ، وللنشوئيين المحدثين آراء قد يستمدون تأييدها - لو شاءوا - من آيات قرآنية فسرها بعضنا تفسيرا يتقبله القائلون بتنازع البقاء وبقاء الأصلح وتتابع الأطوار :

(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) .

(سورة البقرة)

* * *

(فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض) .

(سورة الرعد)

* * *

(وقد خلقكم أطوارا)

(سورة نوح)

فهل من الواجب على المؤمن بالقرآن أن يلتمس فيه تأييدا لأصحاب « النظريات » والفروض فى كل عصر يظهرون فيه ؟ ‥ نقول « كلا ولا ريب » لأنها قد تثبت كلها أو بعضها ، وقد يطرأ عليها النقض أو التعديل بين جيل وجيل ، ولكن القرآن يعمل عمل الدين الصالح اذا سمح للعقل أن يلتمس الحقيقة مع كل فرض من الفروض وترك له أن ينتهى بها الى نهاية شوطه مسئولا عن نتيجة عمله وعما يفيد أو لا يفيد من جهوده ومحاولاته ، فليس من عمل الدين أن يتعقب هذه الفروض والنظريات فى معرض الجدل لتأييد تفسير أو خذلان تأويل ، وحسبه أنه يملى للعقل فى عمله ولا يصده عن سبيله ، فهذا هو الوفاق المطلوب بين العقيدة والبحث وبين الايمان والتفكير ‥

فاذا أخطأ من يقحم القرآن فى تأييد النظرية العلمية قبل ثبوتها ، فمثله فى الخطأ من يقحم القرآن فى تحريمها وهى بين الظن والرجحان ، وبين الأخذ والرد ، فى انتظار البرهان الحاسم من بينات العقل أو مشاهدات العيان ‥

وقد أخطأ هذا الخطأ جهلاء الدين والعلم الذين حرموا القول بدوران الأرض ، وهو أثبت من وجودهم على ظهرها ، وأخطأ مثلهم من حرموا القول بجراثيم الوباء وهى ــ فيما تبين بعد ذلك ــ احدى حقائق العيان

ومذهب التطور ــ خاصة فيما يتعلق بتحول الأنواع ــ لم يثبت ــ بالدليل القاطع ، لأن أنصاره لم يذكروا حتى الآن حيوانا واحدا تحول من نوع الى نوع بفعل الانتخاب الطبيعى ، أو بفعل تنازع البقاء وبقاء الأصلح ، ولكن بطلان القول بهذا الانتخاب لم يثبت كذلك بالدليل القاطع على وجه من الوجوه ، وليس فى القرآن ما يوجب علينا أن نقول ببطلان الانتخاب الطبيعي ، لأن خلق الانسان من الطين لا ينفي التحول الى غير الطين ولا يوجب

علينا القول بكيفية الخلق من الطين على صورة من صور التركيب ، وانما نعلم من القرآن أن الله بدأ خلق الانسان من طين ٠٠

(ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين)

(سورة السجدة)

* * *

وفى آية أخرى : **(من سلالة من طين)** فلا اختلاف بين هذا وبين التحول الذى يثبت ـ اذا ثبت ـ على وجه من الوجوه

ومذهب النشوء ـ مع سائر العلوم الحديثة ـ يقول لنا عن المستقبل البعيد أضعاف ما قاله لنا عن الماضى البعيد : هل يتطور الانسان فى المستقبل مع قوانين الوراثة العلمية أو لا يتطور ؟ وهل يعرف العلماء مسلكه فى طريق التطور أو لا يعلمون ؟

من رجع الى القرآن ليعلم حكمه فى التطور المقبل وجده على العهد به يملى للعقل ولا يصده عن طريق يرجى منه النفاذ الى علم مجهول ٠ وفيما تقدم كلام نقلناه عن أهل العلوم « المختصة » بتطور الأحياء وقوانين التوريث ، نلتفت اليه فنعلم أن قوانين « الناسلات والصبغيات » فى الأرحام لم تنبئهم بخبر يهدى الى مصير معلوم ، وأثبت ما عندهم من نبأ ان الغد كله مرهون بميراث العقل والمشيئة والايمان ٠٠٠

فالذى يعرفه علماء الأجنة وقوانين الوراثة غير قليل بالنظر الى ما كان معروفا من ذلك قبل مائة سنة ، ولكنهم ـ كثر أو قل ـ لا ينفعهم فى تنظيم عمل الوراثة بالانتخاب أو اللقاح فى ظلمات الأرحام ، وانما ينفعهم أن يحسنوا هداية « الانسانية » الى خير ما تستطيعه العقول المميزة اذا صدقت النية على حسب الخير ، وأجمعت العزم على استخلاص الذرية المختارة بالتعليم والارشاد ، وجعلت مسألة التقدم و « بقاء الأصلح » مسألة فهم واعتقاد أدنى الى البلاغ من لقاح الأصلاب والأرحام

ونخال ان القرن العشرين لم يكن فى غنى عن هذه الهداية من علماء

النشــوء ، ولكنها الهداية التى تعلمهــا من القرآن من تعلم (أن صــلاح الانسان فكر وأمانة وايمان) و (**أن الأرض يرثها عبادى الصالحون**)

ونعيدها كلمات موجزة فى ختام هذه الصفحات عن الانسان فى عقيدة القرآن وفى عقائد الأقدمين والمحدثين :

ان القرن العشرين لم يضــع الانسان فى موضع أكرم له وأصدق فى وصفه من موضعه عند أهل القرآن بين خلائق الأرض والسماء وبين أمثاله من أبناء آدم وحواء : موضعه بين خلائق الأرض والسماء انه المخلوق المميز الذى يهتدى بالعقل فيما علم وبالايمان فيما خفى عليه

وموضعه بين بنى آدم وحواء انهم اخوة من عشير واحدة ، أكرمها من كرم بما يعمل من حسن ويجتنب من سوء ، وأفضلها من له فضــل بمــا كسبه وما اتقاه ، لا يدان بعمل غيره ولا ينجو من وزره بغير عمله :

(**تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون**)



فهـــــرس

صفحة

تمهيـــد ٦

الـكتاب الأول : الانسان فى القرآن

المخلوق المسئول ١٣
الـكائن المـكلف ٢٠
روح وجسـد ٢٩
النفس ٣٤
الأمانة ٤١
التكليف والحرية ٤٨
آسرة واحدة ٥٥
آدم ٦٣

الـكتاب الثانى : الانسان فى مذاهب العلم والفكر

عمر الانسان ٦٩
الانسان ومذهب التطور ٧٩
التطور قبل مذهب التطور ٩٢
أثر مذهب النشوء فى الغرب ١٠١

صفحة

مذهب التطور فى الشرق العربى ١٠٨

الدين ومذهب دارون ١٣٣

سلسلة الخلق العظمى ١٣٨

الانسان فى علم الحيوان وفى علوم الأجناس البشرية ١٤٦

الانسان فى علوم النفس والأخلاق ١٥٦

مستقبل الانسان فى علوم الأحياء ١٦٤

عود على بدء ١٧٥

رقم الايداع بدار الكتب ١٨١٤/١٩٧٣

مطبعة دار العلوم





دار العلوم للطباعة
ت ٣١٧٤٨



